عجائب يا زمن

هيثم نافل والي

الكتاب : عجائب يا زمن (قصص قصيرة)

المؤلف : هيثم نافل والي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٥

رقم الإيداع : ٩٢٧٤ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 217 - 5

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٨٠٥٣ ش الجامعة الحديثة. الهضبة الوسطى. المقطم. القاهرة

ت فاكس ٢٧٢٧٠٠٤ (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

لوحة الغلاف : الفنان مازن لطيف



عجائب يا زمن

قصص قصيرة

هيثم نافل والي

إهـــداء

إلى حبيب قلبي

هيثم نافل والي

ومن على طبعه

ومن اتخذ نهجه

ومن لف لفه

ومن أحبَّ شره وشياطينه

إلى كل هؤلاء المدللين

أرفع كتابي هذا اللعين

رحلتي معَ الكتابة

"الشرقيون عادة، يخافون من الحسد كما القتل

وعلى الأرجح، من أنفسهم يخافون!!

لا أستطيع أن أقول أو أجزم إن مرحلة ما قبل الخامس الإعدادي كانت ناضجة أو مثمرة، لكن البداية الحقيقة تعتبر بعد ذلك الوقت من حياة الدراسة العلمية التي اخترتها دون تفكير أو رغبة، خاصة بعد أن استبدلت المواد الأدبية بالعلمية؛ لأن أصحابي ذهبوا إلى مجال العلم ولم يبقَ لي من صديق يعزيني في تخصص الأدب...

هكذا كان قرار توجهي العلمي ساذجًا وطفوليًا، كأنني سأذهب مع أصحابي الذين فضلتهم عن جهل إلى سفرة أو رحلة... لأجد نفسي فيما بعد إنسانًا يعبد الأدب ويتخذه مذهبًا له وفي ذات الوقت يكفر بالعلم وشياطينه، خاصة الزراعي منه!.

قلت إن المرحلة الإعدادية العلمية الخامسة كانت نقطة التحول في حياتي الكتابية... ذلك عندما رأيت نتيجة امتحاني في نصف

السنة لتلك المرحلة الدراسية بمادة اللغة العربية مائة من مائة، استغربت كما زملائي في الفصل، وكان جواب الأستاذ لحظتها:

- أنا أعلم أن ليس بإمكانية هيثم أن يحصل على هذه الدرجة في اللغة العربية، لكنني ومع ذلك ما أن قرأت تعبيره، خياله، أفكاره، وقوة حبكته في موضوع الإنشاء، ورأيت اسمه على دفتر الامتحان حتى أغلقته وأعطيته الدرجة الكاملة، تقديرًا وإعجابًا مني لقدرته وتصرفه الجميل الرائع بمفردات اللغة، والطريقة التي بها روضها، وعرضها حتى ظهر الموضوع وكأنه قصة قصيرة...

ثم أردف بانبهار مأخوذ بعد أن أخذ نفسًا طويلاً:

- بل أكاد أجزم أنه كان قصة قصيرة متكاملة الأركان!

عندها شعرت بزهو واعتداد وثقة بنفسي لأعيد الكرة مرة أخرى وبقصة جديدة - بموضوع جديد- كاد يكون أفضل من أخيه، وهكذا بدأت أكتب ما يخطر في بالي من أفكار ومواقف حدثت لي أو لأهلي أو لأصدقائي، لأصقلها بقصة ذات حبكة ساخرة، لذيذة ومشوقة وكأن اللعبة قد أعجبتني، لأجد نفسي فيما بعد الطالب الذي يكتب للطلاب مواد الإنشاء والخطابة عن غير قصد أو غرور أو حتى تكلف...

في هذا الوقت لم تتغير مناهج قراءاتي في عالم الأدب... بقيتْ على حالها، مبعثرة وغير مبرمجة؛ اقرأ كل ما يصادفني أو أجده

أمامي، حتى وإن كانت معلوماتي وقتها غير كافية ولا حتى قدرتي الإدراكية تستطيع استيعابها، ككتاب "العقب الحديدية" لجاك لندن، أو "الله والإنسان" لحنا الفاخوري، أو الكتب التي لم أعِ حينها بأنها لا تتناسب وعمري الصغير، ككتاب "ضياع في سوهو" لكولن ولسن! والسبب يعود بالتأكيد هو غياب السيطرة أو التوجيه من قِبل العائلة البسيطة في هذا المجال؛ وبقيت أقرأ هكذا بشغف وجنون دون إدراك خطر القراءة غير الموجهة والتي قد تؤدي إلى مشاكل نفسية وفكرية لا يحمد عقباها...

لكنني تجاوزت تلك المرحلة بفضل الشيطان ولم أصب إلا بعفريت الحيادية، الذي جعلني لا أحب أن أتخذ نظرية أو مبدأ أو قانون في اتجاه واحد، وآمنت بالوسط وخضعت لسلطانه، وكأني عبد له، وقلت لنفسي جادًا مستسلمًا لتلك الهواجس التي وشمت في عقلي:

"إن الكون له أربعة اتجاهات ولا يمكن أن أتحدد في اتجاه واحد"، وهكذا كنت وترعرعت... لأكون في نظر نفسي كاتبًا فيما بعد لكل الاتجاهات، وأقصد بالتأكيد هنا الاجتماعية داخل المجتمع، وهل يخلو مجتمع من هذا التنوع؟! أبدًا، فالتنوع هو الثقافة، هو الاختلاف والرأي الآخر، وهو طبيعة الإنسان والأشياء. لذلك كتبت للطفل والتاجر والفنان والسكير والشيطان والدجال والنبي والملاك والآلهة... ومع ذلك هناك الكثير مما لم أكتب له بعد.

درست الموسيقى في معهد خاص، ليسَ لصاحب المعهد من هَمٍّ سوى الدينار! فخرجت منه بعد مضي أكثر من سنة وأنا لا أعزف إلا على الجيتار، وبمبادئ لا تتناسب والمال المدفوع!

مضيت في عالم الأدب وأنا أنظر إلى الفنون التشكيلية نظرة حالم لا يستطيع أن يمسك بزمام الواقع... لأنه يحلم! فالمرض الحيادي جعلني استقل في أفكاري حتى الحزبية منها، فلم أنتمِ إلى أي حزب، حتى يومي هذا...

كان السبب الرئيسي في عدم قبولي بأكاديمية الفنون الجميلة رغم حصولي على معدل يجعلني أدرس الهندسة بدل الفن! ومعَ ذلك جاء الرفض صريحًا وقحًا ومتماديًا... وقررت بعدها أن أدرس أي شيء كي أتجنب الحرب التي كانت نارها مستعرة بين العراق وإيران.

شاءت الصدف أن أدخل الزراعة التي لي فيها مواقف وحكايات نادرة، لو سجلتها على الورق، لخرجت منها بكتاب لذيذ، مشوق ونادر. ففي إحدى المرات سألني أستاذي بمادة البستنة الزراعية بقوله:

- عدِّد لي خمسة أنواع من أسرة الحمضيات؟!

وكانت النتيجة مؤلمة وخائبة كما توقعت لم أُصدم فيها! قلت بإيجاز وحذر شديدين:

- البرتقال، الليمون والنارنج.

ثم قرَّرتُ الصمت لجهلي المطبق بالأنواع الأخرى، ولولا شيوع هذه الأنواع الثلاثة في أسواق الفاكهة والخضار لما كنت قد عرفت! وقلت في سري متألمًا:

"ماذا سيحصل لو سألني عن خمس من روايات أناتول فرانس أو خمس من مسرحيات الحكيم أو شكسبير أو خمس من روايات مينة أو ماركيز؟! لأثبت له مقدرتي الفائقة التي لا تنازع ولا تقارع... لكنه سألني فيما أنا محجم ومنصرف عنه للأسف".

أو عندما أقمت ثلاثة معارض للرسم التشكيلي، ولكم أن تعرفوا مدى حرصي على الفن وخيبتي في العلم، وأنا أقدم للفلاحين الفن التشكيلي الذي خرجت منه بعلاقات نسائية رائعة، جميلة، ذو فائدة وخبرة جعلتنى أتخرج من صفوفها الراقية النهائية وأنا مازلت في المرحلة الأولى من عهد الدراسة في الجامعة... لقد كانت علاقات فذة وحميمة!

انتشر صيتي في القسم الذي أدرس فيه على أني الطالب الذي يفحم الأساتذة بأسئلته! ولكن ما نوع هذه الأسئلة التي يقصدون؟! إنها أسئلة مخربة... هدفها تضييع الوقت، وتأخير الدرس، ونشر الفوضى في قاعة المحاضرات! اعتمادًا على حكمتي البائسة: ما دخلي أنا بنثر السماد ومواعيد الحصاد؟!.

تعودت مع الوقت وبخبث شيطاني لا أعلم كيف أتاني ولا من أين، أن أوجه للأساتذة المحاضرين أسئلة صعبة ومعقدة وأغلبها

مصطلحات لا ترحم ولا تغني وأطلب تفسيرًا لها... فيعجز الأستاذ عن الإجابة عليها وهو صاغر! وهكذا بدأت أتفنن في البحث عن المصطلحات المعقدة الغريبة التي يجهلها الشيطان نفسه، كي أهيئ نفسي لدفعها في قاعة الدرس عن مكر، بحثًا عن تضييع الوقت، والطلبة يتغنون وينشدون هذه الحركات بعد أن أعجبتهم اللعبة... يا لها من لعبة كنا فيها الخاسرين دائمًا! هذا ما ذكرته في شخصية فارس في قصة صورة الرئيس في مجموعتي القصصية الأولى.

ولكن لا يبقى الشيء على حاله، وهكذا تجاوزت المرحلة الجامعية وأنا لا أنشد سوى الأدب الضائع مني! بعدها قررت السفر خارج أسوار الوطن، وأنا لا أملك سوى أوراق تثبت أني مهندس زراعي، ولكن بمقدرة علمية ضحلة لا تكاد تُذكر، وبتفوق أدبي طاغ عجيب!

لم تمضِ على إقامتي في ميونخ سوى أسابيع، حتى كنت أحد أفضل زبائن مكتبة جامعة ميونخ القسم الشرقي الرائع، والذي تديره امرأة ألمانية حاصلة على شهادة دكتوراه في اللغة العربية؛ وسرعان ما شعرتْ بتواجدي المستمر شبه اليومي في قاعة المكتبة وكأنني أسكن فيها! فبادرتني بالسؤال باستغراب وحيرة:
- لماذا أنت هنا؟!

ثم استطردت بجدٍّ وحزم:

- لقد اطلعت على هويتك والمعلومات المدونة فيها واتضح أنك صائغ ذهب ومتخرج من صفوف كلية الزراعة، لكنك لا تحضر إلى هنا لتقرأ ما يتعلق باختصاصك؟!

ابتسمتُ غامزًا، ماكرًا، وتذكرت الأسئلة التي كنت أوجهها لأساتذتي الأفاضل، وقلت بإيجاز مقتصد:

- ما أقرأه هو الأدب العربي، وأنا كما ترين من بلاد العرب... إذن، فأنا أقرأ لبلادنا وهو بالتالي أدبنا!

فضحكت وأصبحنا كالصديقين، أسألها عن كتب أتوق لقراءتها في العراق ولم أجدها، كانت تحضرها لي عن طيب خاطر عجيب وكأنها أمي! حتى وإن كانت تلك الكتب النسخة الوحيدة المعتمدة والموجودة في مكتبة الجامعة...

يا لها من إنسانة تفهمت معنى الشعور الذي يخالج من يحب الأدب حد العشق، حب لا يبارى ولا يتزعزع ولا يتنازل أو يتهاون ولا تختلف أو تضعف درجاته بالقدم! بل العكس تمامًا، فكلما تعمقت كلما اكتشفت أسرارًا جديدة، تعطيني دفعة البحث وبقوة أكبر وبطاقة وشوق عارمين... هذا هو الأدب الذي أعرفه وعشقته حد الإيمان والعبادة وكأنه إله الكون!

تراكمت مسؤولياتي في الغربة سريعًا، وأصبحت فجأة شخص يسعى للرزق كي يعيش! قلّت قراءاتي ولم أهملها... بدأت أكتب المقال والقصة القصيرة ولكن بشكل مضحك لا يمت لشروط

وأساسيات وقواعد فن الكتابة... لكنها نشرت لي رغم فقرها وبساطتها، ثم قمت - بمساعدة زوجتي - بتأسيس مجلة فصلية ناطقة باللغة العربية تهتم بالقضايا الاجتماعية والدينية والأدبية والعلمية، كانت تباع بسعر تكاليفها، والهدف منها كان: أن أبقى بجانب الأدب والقراءة والكتابة، كيلا أموت!.

أصبحت قراءاتي موجَّهة، بعد أن كانت مبعثرة، لا تعرف طريقًا واضحًا لها؛ وأكثر ما كان يفرحني هو عندما تعلمت أسلوبًا جديدًا في القراءة، وهو أن أقتني كل ما أستطيع للكاتب الذي أنوي أن أتفرغ وأقرأ له، وبعد أن أحصل على مؤلفاته أقرؤها تباعًا دون انقطاع أو توقف... الكتاب تلو الآخر، حتى أفرغ من الكاتب ومؤلفاته، عندها أكون قد عرفت عنه كل شيء، حتى ما يحبه من طعام وما هو نبيذه المفضل!

فكرت يومًا بدراسة شخصية يوحنا المعمدان.. ولم أجد نفسي بعد حين، إلا غارقًا في بحر الأديان دون إرادة وكأني منوم مغناطيسيًا... ابتعت كل ما توفر من مؤلفات تخص أديان الشرق القديمة وبدأت الغوص فيها، استغرقت في البحث والتنقيب والتفسير والتحليل مدة لم تقل عن أربع سنوات متواصلة دون انقطاع، بعدها كتبت ملاحظاتي التي خرجت فيها بكتاب تحت عنوان "الدين والنبي في التاريخ" في مائتين وثمانين صفحة دون صور!.

خلال تلك الفترة الحرجة التي استهلكت فيها طاقة تجاوزت حدود قدرتي الجسمانية، تعرفت بالصدفة بعد أن نصحني صديق لي بالكتابة إلى موقع إلكتروني اسمه منددائين جروب... وكانت البداية والانطلاقة التي جعلت مني أدخل حقل المنافسة بعد أن وجدت هناك من يكتب القصة القصيرة كذلك، فاشتد حماسي وقبلت التحدي...

كتبت دون ملل وبحيوية تتسم بالنشاط والهمة العالية بعد أن تركزت قراءاتي ودراستي في مجال القصة القصيرة، ولا أنسى فضل وجهد من كان يحثني على المواصلة أو من كان يقدم لي يد العون والنصيحة دون مقابل، وأخص بالذكر الأديب الفنان المسرحي "مديح زامل الصادق" لما ترك من أثر وتأثير على نفسيتي وكتاباتي وحتى أفكاري في الكتابة؛ فيا لهم من أصدقاء أوفياء قلَّ مثيلهم في عالم لا يعرف اليوم سوى المال لغة، ولا يتخذون سوى المصلحة الذاتية مذهب في حياتهم! كما لا يفوتني أن أذكر تشجيع زوجتي ووقوفها بجانبي وهي تختار لي عناوين القصص بعد أن تقرأها بكل دقة وحذر وكأنها تسير على حبلٍ مشدود.

هذه هي حكايتي في رحلتي مع الكتابة، ومشوارها الذي سوف لن ينتهي، إلا بانتهاء حياتي.

مقدمة

نشأت المنداوي

قاص وناقد

ميشجان – أمريكا

هيثم نافل والي... أديب متعدد المشارب، أميبي النشاط، ودائب الحركة؛ اقتحم الساحة القصصية عبر بوابة (دار شمس) القاهرية عام ٢٠١٤ بتوأمين بكر، الأولى (الموتى لا يتكلمون) والثانية (الهروب إلى الجحيم) وختمهما بمولود (عجائب يا زمن)، عنونه في يومياته مصرحًا: "مضيت في عالم الأدب وأنا انظر إلى الفنون التشكيلية نظرة حالم"، ما يلبث أن يُهدي مجموعته الأخيرة (الملعونة) إلى نفسه، معللاً ذلك بأن ثمة سور صين يفصل بين (هيثم) القاص والإنسان.

لـ (عجائب يا زمن) شذرات براقة وإفرازات متنوعة المنابع، لا تخلو من متعة، كونها تصب في واحة ذهنية متفجرة اعتمدها القاص مدخلاً شاملاً في إذكاء عالمه المزدحم بالدهشة، ابتداء من عنوان المجموعة حتى الغوص في أعماق الذات البشرية.

تُحلق أغلب أجواء قصصه في دائرة الغربة وتداعياتها، فيلتقط من فيوضها ألواحًا سينمائية مؤطرة بفواصل اجتماعية، ليؤسس منها منصات مكهربة أو تمردات مخفية.

هذه الإرهاصات كثير ما تؤجج خياله الندي والمنغمس بهموم الماضي، فتلد لنا محكيات متزنة كما في قصة (عجائب يا زمن) و(الذليل)؛ وأحيانًا يستدرك القاص هذا السياق فيلجأ إلى استعارة الوطن (الذاكرة) كبيئة متقدة ليوظفها في وعاء المنفى، فيصنع من هذا المزيج محطة لأبطال حقيقين لكنهم مهمشين غير أسوياء! لديهم ارتباط مبهم وبطيء كطموحهم، إضافة إلى قلقهم المضبب كما في (بيت الأحلام) و(الراقص)؛ بينما يلوذ القاص في (الجوهرة المفقودة) إلى التدخل الجراحي فيشطر الحلم بشقيه المادي والمعنوي إلى مناخين متوازيين، لكن يجمعهما سرد واحد.

لا يترك القاص الفضاء الروحاني بعيدًا؛ وهو الذي أنفق سنوات أربع في دراسة المشارب الدينية، فقادته إلى صناعة لحظة تصوف وجدانية أفضت إلى مناجاة وتوق روت ظمأه المستلب في عالم متشابك وحيران كما في (هيول ابن نبي الله).

يقول الناقد "جابر عصفور" عن القصة:

"فن صعب لا يبرع فيه سوى الأكفاء من الكُتَّاب القادرين على اقتناص اللحظات العابرة قبل انزلاقها على أسطح الذاكرة".

إذن، القصة منعطف مباغت معلب برؤية زمنية طارئة، يمزج القاص فيها ذائقته برموز نابضة ليعيد خلقها، بغية ترميم الأضلاع القاتمة في الحياة قبل ذوبانها بالقاع!.

تبقى اللغة المستعملة في المجموعة مفتوحة الأذرع، منسابة غير مضغوطة، يعتمدها "هيثم نافل والي" كعكازه في العبور لبؤر التوتر فتطاوعه في بلوغ الفكرة، والوصول إلى الحوارات المتفجرة من الصراع، وكذلك في التصنت على أنين شخوصه أو تسليط الضوء على معاناتهم: "سأجعل الراوي هنا هو الذي يصفني، فأنا لا أحب أن أقول كيف أبدو، لأنني لا أريد أن أنهش أكثر مما أستطيع أن أمضغ".

هكذا يتحايل القاص على النص، فيتحول وبدون رتوش من (قاص) إلى (راوٍ) ليسمعنا حبكته؛ في حين يقول في مكان آخر:

"من هو الجسد منهما، ومن هو الظل؟! هكذا كانت أمي، وأبي..."، وهنا يقوم برشق القارئ بسؤال في ضجيج الأزمة المستوطنة!!

أحيانًا تسافر نهايات الجمل بعيدًا فتفترس المعنى، لكنه يتداركها بجهد، وفي كلا الحالتين فهو متواجد كصمام أمان في شحذ المنجز وجره إلى الصورة المرسومة له.

وإذا كانت اللغة بتجلياتها الاجتماعية كمنتوج إنساني مطلوبة في الشرح، فإن الحروف المنطوية في تفسير الأحداث تظهر ولاءها للقاص أكثر مما للقارئ، وتتجلى هذه الحرفة بوضوح في

مخاضين متجانسين هما (رقيب الإنسانية) وفي قصة (الطبق) اللتين تغردان بسمفونية شجية وتشكلان في ذات الوقت واحتين منفصلتين في المجموعة.

أما النهايات والخواتم فالقاص دائم الترحال للبحث عن المستفز في منطقة اللاشعور لغرض سحب المتلقي إلى سواحل الاعتذار! فنراه يساير أبطاله السلبيين والإيجابيين في تقرير مصيرهم، وذلك بتقريبهم من دائرة الوجدان والضمير بغية التخلص من الإثم أو الإدانة كما في (أزمة الضمير) و(ملح العيون).

يبقى السرد... ذلك الشد الكهربائي الممتد بين ثقوب الكلمات، هو الحاضر الغائب في تلبية مطالب القاص المتراكمة لغرض الإبحار نحو الاستقرار، والتكامل المنشود.

وأخيرًا... فإن (عجائب يا زمن) حلقة متصلة بإبداع "هيثم نافل والي" الذي نتمنى له المزيد.

صحوة الضمير

يقول الدكتور الروائي عبد الرحمن منيف في إحدى رواياته: الشرقيون غريبو الأطوار، كالأطفال لا يقدرون نتائج ما يفعلون، المهم أن يثبتوا وجودهم ويظهروا متفوقين بنظر أنفسهم وبنظر الآخرين.

إهـداء..

إلى (إ) بطلة القصة، تلك التي لا أستطيع أن أتكهن بأنه سيأتي عليها يومًا وتقرأ قصتها أو كتابي هذا الذي سيتضمنها... متمنيًا أن لا تكون قد نسيت أسرارها تلك التي تشبه سر جمالها الذي لا يمكن فك طلاسمه بسهولة!!

• • • •

اتصلتْ به وكأن الموت يهددها وهي تحتضر...

بكثير من الشوق وبرغبة جسدية صارخة محمومة جائعة، ونفس ملتهبة وروح متمردة، وقلب ينزف لوعة واحتراقًا، حبًا وهيامًا...

وهي تدعوه إلى لقائها والاختلاء بها في بيت أهلها، ولم يقتنع، كأنه يعرف ما سيحدث له كما يعرف باطن يده!!.

فازت إخلاص وهي في مرحلة الإعدادية بلقب ملكة جمال المدرسة التي تدرس فيها، تلك الرابضة على كتف نهر دجلة من جهة الشرق... جمالها لا يقاوم، لها عينان بلون العسل المصفى، سَبَت فيهما محلتها لروعتهما وحسن تصويرهما، واسعتان كعيني ألمها، أنفها مرسوم بقدرة من نتوكل عليه، وشفتان طريتان، موردتان لهما لون قشر الرمان الناضج، وحنك ناعم مصقول، مخطوط بحكمة يجهلها حتى العراف، شعرها كشلال على كتفيها ينساب وينزلق، عودها رفيع وخصرها دقيق يشبه خصر فتاة صينية تمارس الرياضة منذ طفولتها، رائحتها كصوتها كنظراتها تأسر العقول قبل القلوب والعيون...

هكذا كانت إخلاص، وقدرها وضعها في محنة لم تستطع أن تبرأ منها، وهي حبها القاصف المجنون لمهدي؛ الذي ملك عليها كيانها من رأسها حتى أطراف أصابع قدميها... وها هي اليوم تتصل به وتدعوه للقائها في بيت أهلها وهو يراوغ بإصرار وعناد وبلهجة اعتذار كانت أقرب إلى الرفض يدمدم بها ويسقطها على مسامعها.

توسطت الشمس كبد السماء ونشرت دفئها في الهواء، وهي تلح عليه للحضور ففاق إلحاحها الوصف كلجة الطفل عندما يشتهي

شيئًا! فأصبح أمر لا يمكن تجاوزه... رضخ لطلبها وهو يردد في خاطره بارتباك مازجه الخوف: "خطة جريئة أقرب إلى التهور، كيف يطاوعها عقلها؟ لا أدري!" وربما كما يقال:

(بمكان السبع يتمرغل الواوي)، ثم ابتسم وهو يشعر أن قلبه أصبح يدق بين رجليه، هز رأسه عدة مرات وماء مثل قطة مخنوقة: "سأذهب وليكن علام الغيوب حامينا"، ثم همس لها بصوت خفيض إلى أقصى درجة، والكلمات تخرج من فمه متكسرة، غير واضحة:

- سأحضر، اتركي باب البيت مفتوحًا قليلاً، وسأكون في غضون دقائق في حضنك يا حبيبتي.

وقبل أن يغلق الخط، تذكر شيئًا مهمًا فسألها بنشاط:

- ماذا عن أهلك يا إخلاص؟

- كم أنت ساذج يا مهدي، بل أموت أنا في سذاجتك، لأنها تعني لي صدقك والطفل الذي بداخلك وخوفك عليّ!

ثم أجابته برنة هجينة ما بين القسوة والإغراء:

- ماذا تعتقد هل أنا غبية إلى هذا الحد؟ وأضافت: إنهم لن يرجعوا قبل السادسة مساءً، وغمزت مردفة: عليك أن تعلم أن الإنسان عقل وجرأة، وها أنا أجسد لك كليهما على الواقع معًا! وتابعت بنشوة: هذا يعني أن لدينا وقتا ثمينًا وطويلاً للعناق وبث الشكوى والنجوى!

- يا لكِ من فتاة جميلة، ذكية وخبيثة في نفس الوقت...

ثم استطرد مختصرًا:

- لا أريد أن أضيع من الوقت الآن الكثير... سآتي وعندها نستطيع أن نبث الكلام همسًا، نسقطه في أذاننا إسقاطًا.

وعاد يذكرها بما قاله بعد أن انفرجت أساريره:

- لا تنسي أن تتركي الباب مفتوحًا.

أغلق الخط وهو يردد جامحًا، مخاطبًا نفسه غير مصدق، كفتاة اكتشفت جسدها فجأة وقد نضج: "أنا لا أنكر خوفي عليها وحبي الكبير لها، لكنني أبقى بشرًا، أتوق إلى تجريب الإثم عن قرب أو على أقل تقدير أن أتذوقه"، ثم بوجه محتقن بالرغبة نادى:

"ليس بعد الصبر سوى القبر، يا الله، رنتها وهي تهمس لا تجرح فقط، بل تذل، سأطير لها كالعاصفة، بل بخفة وسرعة اختفاء النشالين بعد إتمام أعمالهم! سوف لن أبقي لها سكة لا ألجها أو ارتقيها! سأجعلها لا تعرف من هو سيدها ومن هي سيدتها"، ثم هز رأسه مرات متوالية وواثقة وقهقه بعربدة كضحكة بحار عتيد مخضرم، وهو يشعر بالنشوى تحرق جسده وتأكله، ورغبة أقوى من الشبق في حضنها وطقطقة أضلعها، ويحلم بأوقات كلها إثمًا وكفرًا، مجونًا وجنونًا...

لكنه في صحوة ضمير أو لحظة ضعف آدمية تباطأ فجأة وقال في سره: "إن أول جريمة اقترفت على الأرض كانت بسبب فتاة،

فلا يمنع من حدوثها مجددًا لنفس السبب! علينا أن نتعلم من تجارب وأخطاء الذين سبقونا من الحمقى!"، عض شفتيه، بلع ريقه الناشف وبنبرة متراجعة وسوس: "إذن عليَّ أن لا أنسى ما لهذه الرحلة من مخاطر قد لا أرجع منها سالمًا! وكما يقال: من الشجاعة في بعض الأحيان أن يبقى المرء على قيد الحياة"، ثم تابع يسأل نفسه بريبة مرددًا: "سوء الظن من حسن الفطن كما يقال! ترى أين تعلمت إخلاص فن الإغراء والإغواء هذا؟ ألم تدعُ من قبل رجلاً غيري؟ كيف يمكن لي فيما بعد أن أثق بها وأصدقها؟ حتى لو ادعت حبي وكل ما تفعله من أجلي!".

ظل مطرقًا، ساهمًا، مطأطأ الرأس، زم شفتيه كطفل غاضب وهو يشعر رغم كل ما قاله وما فكر به كيانه متوثبًا ومتحفز ولا تسيطر عليه إلا فكرة واحدة؛ "إخلاص" وهي تتخلص من ثيابها الواحدة بعد الأخرى، نظر لها في مخيلته مأخوذًا والشهوة تكاد تأتي على قلبه، فنبر بكلمات حادة وقاطعة كشفرة المقصلة: المثل عندنا يقول:

"من يريد أن يصير جمَّالاً، عليه أن يُعلي عتبة بيته، ليسهل ارتقائه!"، ابتسم بوقاحة وصلافة واستدرك بصوت واضح أقرب إلى الصرامة والتحدي: "لابد من الخلاص يا إخلاص، والله هو المدبر والميسر وعليه التوكل".

بأعصاب باردة وكأن الأمر برمته لا يعنيه فتح الباب الذي كان مفتوحًا أصلاً، ودخل بخطى واثقة دلالة الاقتناع، حتى أصبح

بين أحضان حضرة الملاك في غرفتها وعلى سرير نومها... همست إخلاص برنة ناعمة اختلط فيها المكر مع الإغراء، سحقته فيها:

- تستطيع يا حبيبي أن تفعل بي ما تشاء!

وهي تفك أزرار قميصها المخملي الشفاف الذي لم تكن بحاجة لخلعه! فقد كانا نهداها قاسيين وبارزين بقوة وهما يختنقان خلف القميص، لقد رآهما مهدي بوضوح شديد، كما يرى المرء صورته في المرآة! ومع ذلك تحررت إخلاص ممن كان يضايقها أو عن حبيبها يفصلها...

وما أن اندفع مهدي بجنون أعمى نحوها... حتى فتحت أمها الباب عليهما فجأة، صعقت مما رأت... عُقد لسانها للحظة كانت بطول الدهر، لم تكن عيناها تريدان أن تصدقا، فالمشهد كان أكبر بكثير من تصوراتها وحدسها وحتى استيعاب عقلها... تراجعت إلى الوراء كأنها تريد الاختفاء، ثم فاقت على نفسها فناحت، فدوى صوتها حادًا، جافًا يهيج الأعصاب كعواء الذئب وهي تشعر بالانهيار والاستنكار، تلطم صدرها بقوة جنونية كأنها تريد الانتحار:

- ماذا تفعلان؟ ومن هذا الذي تجرأ على تلويث حُرمة بيتي والاعتداء على ابنتي؟ ها...؟.

ثم قفزت صامتة، صمت السكين وهي تقطع وبحالة أعجز عن وصفها، على السرير لتلتقط ابنتها وهي عارية كما خلقها الله.

• • • •

في هذه اللحظة القاسية الثقيلة وخزته على خاصرته أمه العجوز التي كانت جالسة بجانبه في القطار الذي يقلهما من بغداد، متوجهين لزيارة أخواله في مدينة البصرة، لم ينتبه مهدي وظل سارحًا فيما هو به، فصفعته العجوز برفق لا يخلو من تحذير وهي تقول:

- لقد وصلنا يا حبيبي، وعلينا الترجل من القطار في المحطة القادمة، هيا التقط الحقائب من خاناتها ولنتوثب للنزول لحظة وقوفه...

ثم وبَّخته زاجرة:

- ماذا جرى لك اليوم يا بني؟ فحالك يبكي الأصدقاء ويضحك عليك الأعداء! بماذا كنت تفكر؟.

فرك مهدي عينيه، نظر إلى أمه نظرة متسائلة أقرب إلى البلاهة، وهمس مخاطبًا نفسه: "اللعنة عليّ، بماذا كنت أفكر؟ بل كيف طاوعتني نفسي أن أكون آثمًا وأنا أتخيل حبيبتي إخلاص بهذا الشكل الفاضح، المكشوف المقزز؟! تبًا لي من مارق، كيف أدع

نفسي تستجيب لهذا المجون حتى لو كان حلمًا؟" ثم أكمل مخذولاً: "إخلاص لا تستحق مني كل هذا الفجور! آه يا رب... أشعر بالخزي يعذبني ويسحقني".

ثم باللحظة التي تهيأ للنزول والقطار مازال يئن ويزفر ويسير بخطى وئيدة، متمهلة وعجلاته تزمجر، رنَّ هاتفه المحمول فجأة، رفعه بخمول منهكًا ورد بصوت خرج مجروحًا:

- نعم، من هناك؟

- هكذا إذن! لم تعرفني؟

بانفعال، فخرج الصوت من أعماق صدره:

- إخلاص!

- ومن يكون يا ملعون!

ثم أردفت بسحر جعله يموت ويحيا:

- أشعر بالظمأ... أين أنت الآن؟ أقصد، أريد أن أقول... إن أهلي ليسوا في البيت، فيا حبذا لو تأتيني سريعًا كالطير، شوقي إليك يعذبني، يحرقني، بل يغرقني حتى هامتي؛ اللعنة عليك يا حبيبي لقد جعلتني أزحف على الأرض زحفًا، لا أستطيع الوقوف، متى ستأتي لترويني؟!.

أنــا أســف

الشعر المصبوغ لن يخفي تجاعيد الوجه، كفائز في
حرب لم يجنِ منها شيئًا ، كذلك الذي يُقلِّب الكتب في
مكتبة دون محاولة قراءتها ؛ فتتولد عنده عادات
تفوق مستواه، وتجعله يتمتع بثقافة أسوأ مما كان
عليه قبل التقليب، فيصبح والعياذ بالله كالساعة
التي لا تعرف في حياتها ، سوى تكرار دقاتها!!

أنا آدم، لكنني لستُ أبًا للبشر!

بتباهٍ مختال وبطريقة حالمة رمزية، أقصد اسمي فقط هو آدم، فلا تذهبوا بأفكاركم بعيدًا، فأنا ما زلت شابًا في العشرين؛ ثم بشجاعة وبوجه مشرق أردف: "سأجعل الراوي هنا هو الذي يصفني، فأنا لا أحب أن أقول كيف أبدو، لأنني لا أريد أن أنهش أكثر مما أستطيع أن أمضغ".

(كان آدم أنيقًا، رشيقًا ومهذبًا؛ ملامحه حادة ناعمة، وأصابع يديه ملفتة للنظر، نظيفة كأنها مصقولة كأصابع البيانو، مرسومة

بقدرة الخالق سبحانه وتعالى بدقة متناهية، أسمر البشرة كسيريلانكي وسيم).

في لهجة ودية غير مترددة شرع آدم يسترسل:

"غالبًا ما كنت أرتدي ملابس كثيرة الألوان والخطوط، ولعي بها ماذا أفعل؟! فأبدو للناظرين وأنا بداخلها كلوحة تجريدية؛ أخزاني الشيطان، وقصر رقبتي الطويلة بقدرته الكبيرة المعهودة! عذرًا، فأنا لا أصف هنا ثيابي لكم لغرض الاستعراض، بل لأقول متوجعًا، كجبان تافه يثير الملل، إنها كانت من النوع الغالي التي أقدّر ثمن كل قطعة منها بما يعادل إيراد يومين مما يتقاضاه أو يربحه أبي من تجارته المتواضعة في بيع الكتب العربية للأجانب العرب في كوبنهاجن! سلخ الله جلدي وجعلني في الدرك السابع تحت الأرض، إذ ما يخزيني اليوم هو أني لم أسأله يومًا، من أين يأتي بكل تلك النقود التي يهبها لي بسخاء غير محدود كراهب! وهذه كانت إحدى تجاربي الخاطئة، القاسية والمؤلمة التي تعلمت منها دروسًا مفيدة فيما بعد، فعلى الشاب أو الشابة أن يترفق بطلباته، خاصة تلك التي تذهب أموالها في غير مكانها الصحيح، كالثياب الغالية السعر، تلك التي يمكن استبدالها بأخرى لا تقل جمالاً وجودة من مثيلاتها ذات السمعة والماركة العالمية".

ثم نوه متبجحًا كصيحة مبتهج: "لحظة من فضلكم أريد أن أتحدث معكم... فلا تتعجلوا أرجوكم! فهذه التجربة لم تكن ذات بال مقارنة بتلك التي فعلتها فيما بعد بنفسي وأهلي!".

ثم تابع باعتزاز:
"سأقصُّ عليكم حكايتي، أعني تجربتي، بتواضع يتسمُّ بالكبرياء، كمن لا يخاف ولا يجازف! وبصدقٍ قد يصل حدَّ الإيمان، وأسألكم: هل هناك إيمان يصل حد الصدق؟"، وأضاف مباغتًا بلمحة يتلكأ فيها الخبث مناورًا بتملق:"لا علينا، فليس هذا ما أريد أن أخبركم به!".

ثم ببراعة صبيانية نبر:
"جريء أنا أليس كذلك؟!".

وتابع متممًا بصوت مرتفع، كصادح في أوبرا:
"لا تعتقدوا أني سأروي لكم قصة منمقة، جاهزة، وكأنها حيلة أدبية لكاتب محترف! أبدًا لم أعنِ ذلك ولم يخطر في بالي قط... ما أردته هو أن أتحدث معكم عن تجربتي في الغربة وأنا في سن العشرين، هكذا بكل بساطة وشفافية كأصحاب لي... هل تسمحون؟ شكرًا لكم!".

تابع بشهامة ورجولة واعتزاز من بين أسنانه:
"تمتعتُ منذ صغري بحياة مرفهة، ليس لأن أهلي أغنياء، أو من الأعيان وأصحاب الثروة، بل لأنهم أحبوني بصدق لا يخامره شك. من أبوين عراقيين؛ لم أولد في العراق، بل في كوبنهاجن عاصمة الحرية والأمان وحقوق الإنسان، وما لذ وطاب لشاب في سني ومن هو أكبر أو أصغر مني!".

"لم يكن أبي وأمي متقدمين في السن، لأنهما تزوجا عن صغر، وأنجباني وهما مازالا في منتصف الحلقة الثانية، لكنهما يبدوان وكأنهما يوازيان عمر الكون! لم أفهم يومًا معنى لذلك، وكم سألت نفسي نفس السؤال: لماذا هما هكذا؟ وبمرور الوقت توصلت إلى جواب شاف أو قناعة وجدتها حقيقية، وهي لأنهما من العراق! العراق الذي لم أزره في حياتي أبدًا، ولم أعرف عنه غير ما يقوله أهلي من خلال انطباعاتهم، وزوايا رؤيتهم فقط".

"كان أبي فقيرًا جدًا، عذرًا، أعني درويشًا، ولم يكن يفهم بلغة النفاق المنتشرة في كل زقاق من هذا العالم! ما في قلبه يظهر على لسانه، كريمًا جدًا، لا يتصوره إنسان كفلاح من أهل الجبل؛ له عنق قوي، ورأس غير عنيد، طويل، أنيق، ونظيف جدًا، له أنف طفل مثير يدل على البراءة، ذو خيال خصب متقد وواسع، كشيخ لقبيلة من البدو؛ عيناه واسعتان، لهما ميل للنبوغ أو الإبداع، وإذا ابتهج، فمرحه غالبًا ما يكون متوجًا بالرزانة! غفر الله له وعفا عنه، فحتى فرحه ومرحه كان جادًا، مهذبًا ومتزنًا، في حين تمتعت أمي بجمال أخاذ يأسر القلوب، وبنبرة صوت شجية، مؤثرة كرنة النحاس، واثقة من نفسها جدًا لا تحب التبرج كثيرًا، وأصغر من أبي بثلاث سنوات فقط".

"قلتُ في البداية إن أبي ليس من الأعيان وأصحاب الثروة، وتصورت حينها عن غباء، بأنه كان يعرف كيف يأتي بالمال، لم أعلم إلا بعد فترة طويلة أنه كان يستدين المال من أجل تلبية

طلباتي التافهة السخيفة، التي كنت أستطيع التخلي عنها بسهولة كالثياب المرتفعة الثمن، أو الأحذية الرياضية ذات الاسم العالمي، أو أجهزة الاتصالات الحديثة وغيرها من الكماليات التي لا تغني ولا تشبع، وكانت هذه إحدى الأسباب المخجلة التي دفعتني أن أتحدث بها معكم، للترويح عن نفسي ولكشفها وتعريتها أمامكم، لعل بعض الذين في سني يدركون أو يتعظون".

"نافست أمي أبي في طيبته، فتغلبت عليه... عجبًا لها من أسرة! لم أرَ في حياتي التي عشتها في كوبنهاجن مثلها! فهما يخرجان، يأكلان، يعودان، ينامان، يشربان، يضحكان ويبكيان معًا! وكأنهما متصلان بعضهما ببعض بسلاسل فولاذية غير مرئية، وعندما كبرت ووعيت على نفسي والحياة عرفت بأنهما متحابان، يفهمان بعضهما إلى حد يشبه الصورة وانعكاسها في المرآة أو كالظل والجسد، وأدفع الغالي والنفيس وأتحدى من يستطيع تمييزهما ليقول مفرقًا: من هو الجسد منهما، ومن هو الظل؟! هكذا كان أمي وأبي، لكنني لم أبقَ وفيًا، مخلصًا، مثابرًا، جادًا، واضحًا وصريحًا معهما، كما أنا الآن معكم!!".

"لقد كافحتُ وقاتلتُ - حسب رأيي - من أجل توصيل فكرتي ومن ثم الأخذ والاقتناع بها، كما يكافح ويقاتل الشيطان، هل تصدقون؟!".

ويجيب على تساؤله بصورة غريزية دون وقفة لأخذ النفس: "بلى، صدقوا فهذا الذي حصل وحق الريح وما يصاحبها!"، وأضاف برقة لم يستطع من خلالها إخفاء قسوته: "الإنسان ليس سكة قطار، لا يعرف الانحراف! حاولت أن أستقل بحياتي من خلال طلبي وبإلحاح كبير أن أكمل حياتي الدراسية والخاصة في بلد آخر أو حتى في قارة أخرى...".

ثم يكمل وهو يعضُّ شفتيه بازدراء:

"وجدت ذلك جزء من مستلزماتي الشخصية التي لا يستطيع أي فرد في هذا العالم أن يمنعني من ممارستها، رغم حصولي على كل ما أريد دون أن أعلم كيف كان أهلي يلبون طلباتي العجيبة الغريبة بهذه السرعة، وبهذه البساطة كما قلت مذ قليل، كانت وجهتي استراليا... هاجرت لها برغبة جنونية، شيطانية عارمة، بحثًا عن ذاتي التي كنت أقول عنها مفقودة! رغم معارضة أهلي لقراري... لكنني عملت ما رأيته صحيحًا من وجهة نظري! ولم أتأثر بمناشدات أهلي لي، لا العنيفة منها ولا الرقيقة!".

"حاولت في البداية تكملة دراستي الجامعية ففشلت فشلاً ذريعًا، لم يكن هذا في حساباتي يومًا! لقد أصبحت هناك فجأة متوتر الأعصاب كالفأر... فاللغة والمواد العلمية وأسلوب الدراسة المختلف وغلاء المعيشة، وتكاليف الدراسة التي يجب عليّ دفعها قبل كل بداية عام دراسي... كلها كانت أسبابًا قاهرة، منطقية،

أدت إلى فشلي في تكملة دراستي التي كنتُ متفوقًا فيها في كوبنهاجن! اللعنة على طموحي الغريب وجموحي الأهوج الأرعن".

بندمٍ صادق، وبسحنة تغيَّر لونها الحقيقي، فبدت سمراء داكنة كلون الجبل العاري، أردف:

"هذه كانت من أخطر ما وصلت إليه هناك... حيث أنني بتركي للدراسة، حاولت أن أعمل وأن أعيش، فليس لي من بعد ذلك الفشل المروع من خيار آخر، عملت في شتى الأعمال... حتى استقر بي الحال في مجال البناء، لا تظنون أني عملت كمهندس هناك، كما هو تخصصي قبل أن أفشل في دراستي! بل عاملاً بسيطًا، وبأجور قليلة لا تتناسب والجهد والتعب المبذول، حتى مرضت، لأنني لم أتعود تلك الحياة القاسية، الصعبة، الأليمة! بتمرد ونزق وغرور مزمن يستحيل الشفاء منه؛ اتجهت إلى زمرتنا، عفوًا، أقصد أصدقائنا وأقربائنا هناك، كشيطان مسكين استحث مساعدتهم بغفلة ساذجة، لأن عنادي بعدم التوجه إلى أهلي كان كبيرًا، كصلابة وعناد فولاذ السكة الحديدية! وعلى ما أذكر اعتقدت خاطئًا أنهم ربما سيكونون لي عونًا أو مثل أمي وأبي حبًا وعطفًا! لكنني تفاجأت بردودهم الباردة اللاسعة، التي لها وقع السم في البدن، وأكثرهم قبحًا واستهتارًا كان شخص يحسب نفسه رجل ويمتلك خصيتين! له لحية قصيرة مثل لحية التيس، حيث تقدم نحوي وشعرت بأنه يريد نطحي قائلاً بفتور

واستياء دون استحياء، كأولئك الذين يتظاهرون بالنعاس عندما لا يرغبون في التواصل بالحديث، وبتوبيخ قاسٍ:

ـ لو كنتَ جادًا، رجلاً كما تدعي وتقول؛ لنجحتَ في حياتك هناك حيث ولدت!

ثم سألني بصرامة، وبتأنيب لاذع شعرتُ أنها وقاحة وتطرف سخيف:

ـ لماذا أنت هنا؟!

صُدمتُ وصُعقتُ بحديثهم وردودهم النارية، وكأنني طُعنتُ من قِبلهم بآلة حادة، عكس ما كنت أتوقع، إذ كنت أشعر بأنني شاب، مرح، وسيم، وقور، ذكي، حساس ويحسب نفسه ذو شأن... لكنني خرجت بنتيجة مؤلمة، قاسية وحقيقية بعد أن أفقت على ضياع الشفقة، وأنا أتظاهر بالاحتشام وأختبئ وراء الرزانة، تلك التي يمتلكها أبي دون نزق أو كذب أو مهادنة، أصلية كالذهب الخالص، لكنني لا أمتلكها ولا حتى ظلاً منها؛ فصدقت حينها بأني أمثل شخص لا يعرف الله... وكان هذا الشعور قاس جدًا، تقبلته بعسر وعلى مضض وأنا أمط كلمة أفّ دون حرج وأشتم زمرتنا تلك وأقول: ليذهبوا جميعهم إلى الجحيم، على ما فعلوه بي!!".

"ثم بدناءة لا تخلو من سوء النية حاولت الاتصال مجددًا بأهلي... لكنني تكلمت معهما بطريقة تتسم بالغباء، غير ممتعة كعادتي

معهما! أمي وأبي... مسكينان لم يصدقا الخبر! وما أن انتصبت أمامهما كالأبله، حتى طوقا عنقي بقوة وكأنني طائر، لا يرغبان أن يفلت أو يطير من بين أيديهما من جديد! سمعت دقات قلبيهما بدقة ووضوح عالٍ، كتكتكات ساعة حائط أتوماتيكية قديمة لا يقل عمرها عن نصف قرن".

"لم أكن أعلم من قبل أنني لا أعرف في حياتي سوى أن أكون سيئًا، وقحًا وأتظاهر بالبرود مع من يحباني، بل كنت أتحدث إليهما من فوق كتفي بتعالٍ غريب، وبصورة مثارة أحيانًا، ومشاكسًا في أحيان أخرى، لذلك لم أحاول طوال هجرتي الطويلة وعلى مدار سنتين أن أزعج نفسي بالسؤال عنهما، ليس لأنني لا أريدهما أو لا أحبهما... بل لأنني أردت أن أثبت لهما أني أستطيع أن أبني حياتي دون مساعدتهما أو وجودهما أو نصائحهما! وهذا كان من أخطر وأحقر القرارات التي اتخذتها ضد أهلي في حياتي!".

ثم استدرك بألم وحسرة كمن يشعر بالعار:
"هذه هي تجربتي المريرة القاسية، أضعها أمام أعين أخواتي وإخوتي ليأخذوا منها العبرة والحكمة وأن يتجنبوا الوقوع بمثل هذه الأخطاء لأنها ستكون محطمة لنفس الإنسان وروحه وأحلامه على أقل تقدير".

"رجعت إلى أحضان أمي وأبي وأنا أشعر أن لون بشرتي قد تغير وأصبح كلون الحصى عند الجرف بعد أن جففتها الشمس، ألطم صدري بطريقة مسرحية منفعلة ومؤثرة، خالية من الغطرسة والتعالي هذه المرة... رجعت إلى من يحباني أكثر من نفسيهما، وقبلت عرض أبي بأن أساعده في متجره لبيع الكتب العربية، بعد أن فقدت الرغبة بمواصلة الدراسة، وهذا كان نتيجة طبيعية لرغباتي الغبية الرعناء، التي لم تثمر سوى التأخر والقهر والعناء".

"شعرت بلطفهما الذي يتسم بالرضا، ولم أتبرم أو أزم شفتي بعدها كما في السابق... ولم أصب بسوء أو أذى من تجربتي المريرة هذه سوى أني بقيت ولفترة طويلة أعاني من مزاجية تتسم في بعض الأحيان بالحنق، وحيرة مقترنة بالذهول؛ ومن ضحكات ليست متوقعة ولا في محلها أو أوانها غير مستساغة، كضحكات شخص مصاب بالسل؛ ولحظات من الانفعال غير المبرر وبعاطفة مكبوتة مجهولة الهدف، والذي كان غالبًا ما ينتهي بي إلى البكاء الصامت المدمر، محاولاً كتمان دموعي بصعوبة بالغة... فأمسيت شخصًا مركونًا في نظر نفسي، وكان باستطاعتي أن أصدق، أن أحدًا لا يعبأ بي الآن، كشلال مهجور بعد أن جفت ينابيعه، لكنني تعلمت من كل ما جرى شيئًا عظيمًا: من لا يستمع إلى نصيحة أهله، يكون كمن يريد إقناعنا بأن الذخيرة في المعركة أهم من الطعام!".

في أحد الأيام عند الصباح الذي بدا لي بهيًا، جميلاً ورائعًا... عندما كنت مشغولاً بترتيب بعض الكتب، تقدم أبي مني ببطء شديد كالبصير دون عصا، ثم انحنى عليّ بعطف محموم... قبلني قبلة حارة شعرت أن قلبه كان ينزف، كأنه ينوي توديعي قبل سفر طويل، قدم لي رزمة من الأوراق، لم أعرف حينها ما كانت تعني... بعد أن قرأتها اكتشفت أنها أوراق قبولي واعتمادي مجددًا في كلية الهندسة بكوبنهاجن... خنقتني العبرات ولم أستطع وقتها أن أبوح بما كان قلبي يردده:

أنا أسف...

يا أمي وأبي...

أسف...

يا أغلى وأعز الناس.

هَانـــس

في بعض الأحيان لا يحتاج المرء للفوز بالشيء الذي يريده إلى تقديم أشياء منطقية لحصوله عليه، بل يكون بحاجة أكثر إلى الشرح التقني الذي يقنع فقط، كما في المداولات والأحكام التي تدلى وتصدر في المحاكم للفصل في القضايا العالقة والمتنازع عليها ؛ ولكن حتى عندما يفوز صاحبنا بما أراد أو تمنى نراه في الواقع لم يفز بشيء ، ويخرج من هناك، أقصد الحياة، وهو خاسر... هذه هي فلسفة الحياة لمن يريد أن يعرفها ، يا للخيبة!!

يا الله... لم يكن هانس يصدق أنه ابن زنا وأنه رجل بليد، متقلب المزاج كالروج والموج، دائم التغير كماء النهر؛ غير متقد الذكاء وليس كثير الدهاء، كما كان يتبختر كالطاووس في إعلان ذلك في كل مناسبة وعلى كل من يلتقي به، إنه لم يخلق إلا لالتهام الطعام والشراب بفظاظة كريهة وممارسة الجنس بقابلية ضعيفة مخجلة لا يمكن ذكرها بالخير أو الطيبة!!

ولد هَانس - كما كان يلقب بدلال من قبل أصحاب السوء - في برلين الشرقية قبل الوحدة، أي قبل اندماجها مع الغربية. فنشأ

هناك وتعلم الكثير من فنون النصب والاحتيال دون أن يكون له أي صدى مميز بين صحبه وربعه ولا حتى في أقسام الشرطة! لكنه ظل مواظبًا وحريصًا على أن يفعل كل ما توسوس له نفسه دون تفكير كهرٍّ ابن زنا متسكع؛ سلخ الله جلده... إذ لازمته متعة غريبة لم يجنِ منها سوى الخيبة والآخرين التهلكة، وهي تحريضهم على اتباع نصائحه البلهاء، تلك التي لا تؤدي إلا إلى طريق واحد اسمه جهنم الحمراء.

تجاوز الملعون عليه الثامنة والأربعين ولم يتزوج؛ كان قصيرًا وتميل سحنته إلى الإحمرار، شعره لا يكاد يرى على رأسه لقلته؛ تقبع عيناه الصغيرتان خلف عدسات نظارته الطبية السوداء بخوف متلصصتان لا يستقر لهما قرار كرأيه؛ لصوته رنة غير مريحة، جافة وصدئة كتلك التي تصلك من بائعات اللذة وهن يعرضن بضاعتهن على رصيف إحدى الشوارع العتيقة المظلمة المشبوهة من أحياء برلين الفقيرة؛ بينما ظل شاربه أكثر شيء منفر فيه، فهو يشبه إلى حدٍ بعيد شعرات فرشاة الأسنان، يا له من شارب لعين، خشن، مضحك ومنفر في نفس الوقت.

حصوله على إرث خالته في الفترة الأخيرة زاده غرور وغباء لعينين، مما فتك بما كان باقيًا صالحًا في حياته، فأصبح أكثر شراسة وعنجهية، خاصة عندما تتذوق شفتاه الشراب... فيأخذ ساعة يكرع المزيد دون إنصاف، وأول ما يتفوه به لسانه الثقيل هو:

- يا للجحيم، هذه هي سنة القديس بولص، كم الرذيلة مذهلة ومدهشة. ثم يتابع بنفس الرنة المأخوذة: آه... كم أتوق لأن أقترف إثمًا حقيقيًا!!

وبكلمات ممطوطة كالدعاء يضيف:

- يا رب العباد اجعلني من الكفرة الفاسقين وأدخلني في جهة جهنم المسعورة، ثم يسكت، يمسح فمه المخدر ويردف مقهقهًا برعونة وهو يعاود النظر إلى الأرض: هذه هي رغبتي ووصيتي يا أرحم المعاقبين!!

كانت تركة خالته عبارة عن منزل جميل في إسبانيا مع رصيد سمين ودسم في البنك وسيارة نظيفة دائمًا وتلمع، كأنها معروضة أبدًا للبيع. ضاعف كل ذلك من انبهاره ودهشته وبات لا يصبح عليه نهار إلا وقد أرتكب حماقة تضحك كل من حوله إلى حد المغص اللعين، كما أنه لم يحاول يومًا أن يبدو حقيقيًا، عفوًا، أي وربي أقصد أصليًا، حيث دائمًا كان يظهر وكأنه يمثل دور المُقنَّع في كرنفال...

ها أنا سأروي لكم إحدى نوادره المميزة، تلك التي بقت عالقة في ذاكرتي كإصرار تعلق السن في الفكِ!!

قُتل صديقًا له في إحدى الأيام المغبرة الممطرة التي تحاول فيها أشعة الشمس أن تطل أو تتسرب عبر الغيوم ولم تفلح؛ نتيجة شجار قام بين ذلك الصديق وجمهرة من السكيرين الذين لا

يبرحون أماكنهم المفضلة تحت الجسور القديمة، يا لها من حياة! ويا لها من متعة! وما أن جاء هانس كي يقدم العزاء إلى أهل صديقه المغدور، حتى تقدم منه أخو القتيل الذي يدعى توماس، الذي كان له عقل ساذج وقلب رحيم، في خريف العمر، وقد تناثرت على صلعته الملساء بعض الشعرات المتفرقة، طالبًا منه مساعدته في الذهاب معه لجلب بعض المتعلقات التي تخص العزاء...

وافق هَانس بروح متعالية غير رياضية بقبول المساعدة بعد أن رفض الذهاب بسيارته الخاصة، فاستقلا سيارة توماس وانطلقا نحو هدفهما دون أن ينبسا ببنت شفة، وجعلا السكوت يعلو ليكون هو سيد المكان... حتى ظهرت فجأة سيارة خلفهما وسائقها يحذرهما بطريقة مستعجلة من خلال إضاءة سيارته الأمامية، ويحثهما على التوقف وهو يحاول التقرب منهما ليظهر وكأن سيارته تلتصق بسيارتهما...

صاح توماس برعب بعد أن اختلج قلبه كما يختلج خيط الصنارة عندما تتعلق بها سمكة:

- بحق السيدة العذراء سيقتلنا هذا، ثم ناح متممًا: نجنا يا يسوع وترفق بنا، ثم عوى متباكيًا: راعوا الله فينا يا قوم! وتابع منفجرًا، غاضبًا كالرعد: ماذا يريد هذا الأبله منا؟.

كان يدور مقود سيارته نحو اليسار ونحو اليمين محاولاً التملص والتخلص من متابعة تلك السيارة التي ظهرت فجأة كالقدر... فقاطعه هانس باشمئزاز ولؤم وهو يلوي شفتيه سائمًا:

- لا تسخر من مقدساتنا!

- منْ...، أنا؟! مقدساتنا!

(قال ذلك متقدًا كوهج النار في موقد)

- نعم، ومن غيرك يجلس معنا الآن؟!

- كيف ذلك؟ ثم أدرك مستغربًا: الرحمة حلوة يا هَانس، ماذا دهاك؟ لقد كنت قبل قليل هادئًا لطيفًا وسرعان ما انقلبت عفريتًا متمردًا فجأة، ما الذي حصل؟!

- هكذا إذن... تقول ما لا تعني؟

- استغفر ربك يا هَانس... ربما يغفر لك على ما تفعله بي!

- أستغفر ربي! (قالها بطريقة مائعة لا صدق فيها)

ثم أدار هانس رأسه إلى الوراء بغية التعرف على نوع أو صاحب السيارة التي خلفهما، فرأى شخصين في داخلها... فزحف اليأس المشؤوم إلى قلبه، عندها لم تسيطر عليه إلا فكرة واحدة، استسلم لها سريعًا دون سبب واضح، هي الاختفاء والتواري... فصرخ بجلف وضراوة بأخ القتيل بجنون معطيًا أوامره الرعناء كما هي دائمًا:

- انطلق سريعًا يا توماس، وكأن عليه أن يسرع تلافيًا للموت المحقق!! ثم تابع صرخته الهوجاء: أنا أعرفهما جيدًا، إنهما مافيا ويريدان قتلنا كما قتلوا أخاك... ثم حثه بهوس متابعًا، محاولاً إظهار التجلد والقوة: أقطع ذراعي إن خرجنا من هنا سالمين...

فقاطعه توماس بارتباك مأخوذ قبل أن يمكنه من استكمال هتافه، فأجابه:

- لأكن صريحًا معك يا هانس، أنا لا أستطيع أن أصدقك!

بصوته الجاف الصدئ الذي يشبه صوت بائعات اللذة في أخر الليل- كما قلت- نبر صاهلاً:

- ماذا، ماذا تقول؟ كرِّر ما قلته فأنا لم أسمعك جيدًا!.

ثم أردف متحاملاً:

- لا تصدقني! سأقطع رأسك هذا الصدئ وحق الشيطان ومن خلقه، وتابع مجعجعًا: رائحتك يا بائس يا أخا صديقي المغدور عفنة وتقلق الأعصاب! ما هذا بحق السماء، بماذا ترش بدنك كل صباح؟.

واستطرد مستنكرًا، هاتفًا:

- ستجعلني أغضب منك وربما أجد نفسي مضطرًا لكسر أصابعك العشرة هذه المرتجفة التي تمسك المقود برعونة وغباء كبيرين، كما أكسر قطع الطباشير بسهولة ومتعة شيطانية،

صبيانية، ثم نبح: هل سمعت جيدًا ما قلته؟ كما الطباشير يا جلف، يا فلاح، يا من لا يعرف اسم عائلته!.

وأضاف محاولاً تغيير لهجته بيسر وإطراد:

- قلت لك أسرع يا هذا، لماذا لا تسرع؟ إن لحقا بنا أو تجاوزانا فإنهما بالتأكيد سيقطعوننا إربًا ثم يطعمون لحومنا للكلاب السلوقية المسعورة السوداء! هيا يا معزة، يا تيس، يا معتوه... انطلق ولا تجعلهما يلحقان بنا.

وأضاف بعد أن فقد صوابه وثارت ثائرته وبكياسة بدت مصطنعة لا تمثل شخصه الحقيقي، ناهيك عن رنة صوته:

- قذف الله جثتك من أعلى قمة جبل موجودة في الألب بعد حرقها، انطلق يا توماس، انطلق...

انقبض قلب توماس وهو يشعر بقرب أجله، فعض شفتيه خائفًا، حانقًا ومرعوبًا وهو يردد بتعثر كمن يجد صعوبة في النطق:

- نعم، عندك حقك يا هَانس، فأنا لا أريد أن أموت كما مات أخي يوم أمس، سأسرع وليكن ما يكون.

وانطلق بسيارته بجنون هادرًا كالعاصفة، والسيارة التي خلفهما تلحق بهما وعلى نفس الوتيرة دون تردد، وهما ينحرفان نحو إحدى الشوارع الفرعية غير المبلطة...

بقيت السيارة التي خلفهما تلحق بهما بجنون لا يوصف وبجرأة كبيرة وكأن صاحبها ينوي الانتحار! في حين بدأت سيارة

توماس تقفز كالعفريت غير عابئة لما أمامهم من مشاة أو إشارات ضوئية أو عربات... تصعد وتنزل على بلاط الشوارع الفرعية بلا هوادة، وكأنهما يسيران على رصيف مفروش بالحصى، والغبار يسرع وراءهما غاضبًا، حانقًا، كأنه يلعنهما، ومحرك سيارتهما يطلق قرقرات دون هوادة كطلاقات مدفع رشاش... ثم فجأة توقفت السيارة التي خلفهما أمامهما بقسوة محدثة جلبة عالية من الصوت والغبار، فاضطرهما على التوقف مجبرين، عندها وبسرعة ماحقة خاطفة ترجل من السيارة شخصين بملابس مدنية وهما يرفعان مسدسيهما إلى الأعلى ويصرخان بهانس وتوماس بأعلى ما تملك حنجرتيهما من قوة:

ـ انزلا فورًا وارفعا أيديكما إلى الأعلى، هيا لا تتأخرا وإلا أطلقنا النار عليكما... ترجلا وارفعا أيديكما كما قلنا، دون تأخير أو تردد...

كانا يصوبان مسدسيهما نحوهما بجدية صارمة وعزم لا مجال في الشك أو التهاون فيه، فعلا كما طلبا منهما دون أن ينبسا ببنت شفة، وبدا الصمت بينهما كالشلل... تقدم أحد المسلحين نحو هانس وفتشه بحذر، وفعل الآخر مع توماس نفس الشيء، ثم وجه إليهما سؤالاً محددًا مقتضبًا بعد أن أظهر إليهما هويتهما الشخصية التي تقول إنهما من ضباط شرطة برلين الجنائية:

ـ لماذا لم تتوقفا عندما طلبنا منكما ذلك؟

وتابع أحدهم بصوت متزن وهدوء لا يمتلكه الفولاذ أو حتى الصخر:

- ها... لقد أشرنا لكما من خلال مصابيح الإضاءة الأمامية للسيارة، وأشرنا لكما بأيدينا وحاولنا جهد إمكاننا أن نجعلكما تتوقفان دون فائدة تذكر... لماذا؟ ما وراءكما؟ هيا أخبرانا سريعًا، ماذا تحملان معكما في السيارة من ممنوعات؟ هل هناك أسلحة، مخدرات، نقود أو جوازات مزورة؟!

ثم أضاف بذات الرنة الواثقة:

- لقد كنا في عمل روتيني يومي، ولم يكن في بالنا القبض عليكما، بل فقط رؤية هويتكما الشخصية... ولكن عدم مثولكما لأوامرنا هي التي جعلتنا نرتاب بكما ونُصّر على مطاردتكما كمجرمين هاربين من العدالة! وقد حسبنا أثناء متابعتنا لكما المخلفات التي ارتكبتموها، فكانت: السرعة غير القانونية، عدم توقفكما عند الإشارات المرورية الحمراء، وعدم التزامكما بأوامرنا التي كانت صريحة جدًا، طالبين منكما التوقف والترجل من السيارة! وهذه المخالفات تقدر بغرامة مالية حقها أكثر من ٢٠٠٠ مارك، وسحب رخصة قيادة السيارة لمدة لا تقل عن ثلاثة أشهر، وأربعة نقاط من حسابك في دائرة الرخص لقيادات العربات- وهو يشير بأصبعه النحيف النظيف كأصبع بيانو نحو توماس- ثم أكمل أوامره: الآن عليكما المجيء معنا لاستجوابكما معًا وسنرسل من يسحب السيارة لتفتيشها والتحريز عليها!!

أطلق هانس في نهاية خطبة الضابط قهقهة دون اعتبار للموقف أو لأحد، كما يقهقه الجنرالات ها... ها... ها، وتوماس يحدق به في ارتياب واستغراب خائبًا كموجة كانت قبل قليل هادرة هائجة ولكنها سرعان ما ارتطمت بصخرة كبيرة فردتها خائبة بعد أن فتتها، وهو يلعن في سره الساعة التي طلب فيها المساعدة من ابن الزنا هَانس الذي لا يريد أن يصدق الملعون عليه أنه ابن زنا على سن الرمح... ثم ماء توماس مخاطبًا نفسه بصوت خفيض: "عليك اللعنة يا هانس، لقد جعلتنا نرتكب حماقات من خلال مغامرة بدأت بريئة... وانتهت بالاعتقال!"، ثم فجأة سمع صوت صديقه ابن المسحوقة الملعون الجافة الصدئة وهو يزعق بهوس، كمن يحكم ديره وعشيرة:

- اهرب يا توماس، حاول الفرار، أنا أعرفهما جيدًا، سأتولى أمرهما بنفسي، انفذ بجلدك يا سبب كل المصائب!!

ثم أنهى خطبته البتراء:

- إنهما مافيا، عصابة مخدرات، سوف يقتلوننا بدم بارد وهما يضحكان، اهرب ودع الباقي على عاتقي.

بيت الأحلام

"يقول الكاتب الروائي أرنست همنغواي في إحدى رواياته: القصة دائمًا إننا نموت، إننا لا نعلم شيئًا؛ إننا لا نجد متسعًا من الوقت لكي نتعلم؛ إن الأيام تدفعنا إلى الملعب وتُلقننا قواعد اللعبة، حتى إذا ارتكبنا الغلطة الأولى اغتالتنا، في استطاعتك أن تتأكد من ذلك. انتظر قليلاً تجد أن دورك قد حان".

اعتبر عاصم بالنسبة للكثيرين ابن دهاليز، كجني في الشهر السادس... رجل أخرق أمرد، صوته يُسمع ما بين المرأة والصبي، غير متزن؛ لا في سلوكه ولا في كلامه، سيء الطبع، خبيث السريرة، مولع بالفساد، مدمن على الكذب، يحتسي العرق كما يشرب الماء؛ فقير معدم وحاذق في الكذب والنصب والاحتيال، متلذذًا طوال حياته بالمسكرات، والمدمرات بأنواعها المحلية البائسة الصنع والرخيصة، وغالبًا ما كان يرتدي ملابس يصعب تحديد ألوانها الأصلية أو الحالية لتراكم الأوساخ عليها، يا الله... أي سمات اتسم بها مولانا ابن الخائبة هذا غير المغفور له؟.

ولد في بغداد التي قالوا فيها شعرًا ونثرًا أكثر مما قاله أبو نواس في الخمر، من أسرة كبيرة توازي في عددها قبيلة، له رأس كبير يشبه رأس الثور، وعقله لفعل الخير بحجم عقل العصفور، بينما للشر كان من أذكى مخلوقات الله وأقدرها!.

استقر على رأسه الكبير ذاك كتلة ضخمة من الشعر، غير معتن به، بخدين منتفخين غير موردين كعجين لا يريد أن يختمر! رفيع العود رغم ضخامة رأسه، سبحان مصور الأحوال، كيف يستطيع أن يجعل عقل عصفور في إنسان، يعرج قليلاً بساقه اليسرى إثر دخول مسمار في قدمه عندما كان طفلاً، ولم يبرأ منه، يجيد الغناء حينما يكون ثملاً، وما إن يريد المزاح حتى يبدأ بالأهازيج الساخرة، المليئة بالشتائم والتي تنتهي بإصرار وبشكل خبيث بكلمات بذيئة يندى جبين المرء لدى سماعها، ويعتبرها ملح الحديث والدعابة! خاصة عندما ينهي جولاته الخطابية الغنائية وصوته يكون قد بح لكثرة ما قدمه، وبعدها يمج معطيًا أوامره بلا خجل زاعقًا كصاحب مزاج محترف ومنحرف: هش ش ش ش...! ثم على وزنها يضيف بنشوة أقرب إلى السكر: كش ش ش ش...! ويدعو بطريقة غريبة مريبة وبصوت فج يشبه صوت الشهيق:

- إلهي، هب لي عقلاً كعقل الرحمن، واجعل لحمي كلحم الضأن، مرغوبًا ومطلوبًا...

ثم يسكت وكأنه قد قال كل ما حفظه!!

ترعرع في فاقة وعوز كبيرين، فتعلم منذ الصغر عادات سيئة كبرت معه كوزنه، أكثرها شناعة جمع المال بطرق غير مشروعة... وها أنا سأروي لكم إحدى مغامراته التي حدثت وهو في خريف العمر...

في عمر تجاوز الستين، وهو يبدو في التسعين، اشتغل عاصم أجيرًا في مصنع لسبك الذهب؛ عض شفتيه بقوة وهو يتلمظ فرحًا باستلام مهام عمله الجديد، وفي رأسه حلم كبير يراه سيتحقق قريبًا إن اشتغل بمهارة وجد وإتقان!

لم يسكن ابن الحلال الذي نتحدث عنه يومًا في دار يملكها، فبقي مستأجرًا متنقلاً من شقة إلى أخرى، ومن حي إلى آخر، ومن غرفة فوق السطوح إلى غرفة تحت الأرض، وهكذا ظل يجر عائلته معه كظله في كل تنقلاته المكوكية التي لا تريد أن تنتهي؛ فسبب لأولاده إحباطًا وتأخرًا في الدراسة بشكل مروع، وهو لا يبالي ولا ينتكس، وكل مرة يزداد همة في الاستدانة من الناس الجدد الذين يتعرف عليهم، كي يسدد دينًا قديمًا لدائن يهدده بالشكوى وربما إيداعه السجن، وهكذا بقي يستدين من هذا ليعطي ذاك دون أن يعجز أو يملّ أو يستحي...

حتى تعاقد مع صاحب مصنع سبك الذهب، فوضع في ذهنه خطة محكمة لا يعلم بشأنها حتى الشيطان، فقبل بكل شروط العمل

القاسية لرجل مهدود وهرم مثله، لكنه وافق وهو يشعر بابتهاج وسعادة، كأن الله سيقبل دخوله الجنة دون شروط!!

مضى الوقت على عاصم وهو يعمل فجأة على غير ما اعتاد وشب وشاخ عليه، بإخلاص لم يتوقعه أحد ممن يعرفونه، وبهمة كادت تُخجل صاحب المصنع، لأنها أتت من رجل مسن، كان يعتبره كطير قص القدر جناحيه؛ حتى بدأت العلاوات والمكافآت تهطل عليه كالمطر، وهو فرح وسعيد ومتفائل بكل ما تصنعه يداه من إنتاج لم يتوقعه هو نفسه، ويغمغم في الفترة الأخيرة بمثل كان معجبًا به: الحبل يلحق الدلو... ثم يضحك ويهز رأسه، كأنه يوافق على ما يردد!

بات حلمه يصبح أمرًا ملموسًا أو قريبًا للتحقيق... شراء بيت لأسرته بعد طول عذاب وتشرد وهوان. وفي ساعة من ساعات الليل المتأخرة، تلك التي كان الهواء فيها باردًا يصل حد اللسع، ملتهبًا بغبطة عارمة كلهب غبطة النجاح، حمل حقيبته العتيقة، الصغيرة السوداء في يده، تلك التي اقتناها بعناد وإصرار كبيرين كي يضع فيها أثناء ساعات عمله الطويلة زاده وشرابه، فلم تكن تلك الحقيبة تثير الشكوك لأحد لأنه لم يكن ليفارقها، كخياله.

خرج من المصنع وهو يحمل حقيبته تلك التي اعتادت على مرافقته أينما يكون وهي صاغرة، بزهو واعتداد كمقاتل شرس عتيد، استقل سيارة أجرة لم يركبها يومًا من قبل، وأشار لسائقها

بالتوجه حيث هو يسكن الآن؛ في غرفة بحديقة لأسرة فقيرة في إحدى أحياء بغداد القديمة؛ الغرفة التي كانت قبل مدة قصيرة مأوى لأدوات الحديقة وبعض الأشياء المتروكة المهملة، كالعناكب والصراصير والفئران... وبعد أن نظفت وفرغت من محتوياتها، وتشرد سكانها الذين ذكرتهم قبل لحظة، استأجرها عاصم وهو لا يلعن اليوم الذي ولد فيه فقط بل السنة أيضًا، والدنيا والحياة لقسوتهما وربما لأنه مازال على قيد الحياة...

توقف صاحب سيارة الأجرة كما أشار له مذ قليل سِكّيرنا ابن الدهاليز الحاذق اللعين، الذي حوَّل حياة الكثيرين إلى جحيم، والحقيبة السوداء مازالت تبقع بين يديه ساخنة لكثرة ما دعكها ومن صدره قربها الطريق كله، وهو يحلم بسكرة طويلة حال انتهائه من كل مستلزمات الشراء ومراسيمه التي يتمنى أن تكون هذه الليلة قبل أن يهلّ الصبح عليه....

انتظر صاحب السيارة من راكبه أن يُبدي أي إشارة أو همسة أو أن يترجل ويدفع له أجرته التي هي كل مناه في كل مرة يقلّ فيها راكبًا أو يترجل.... وطال انتظاره حتى فقد صبره، فأدار رأسه وخاطب عاصم الغارق في أحلامه المترامية الأطراف:

- يا أخانا، يا عمنا...

يقولون من تطول غيبته، يأتي بالغنائم! ثم بصوت متهدج:

- لقد وصلنا المكان الذي حددته لي... ألا تسمعني؟ أقول لقد وصلنا، أعوذ بالله، ما هذه المصاعب والمصائب التي تنزل علينا في ساعة كهذه... أرجوك أعطني أجرتي ودعني أتوكل على الله، فأنا سائق أجرة، ووقتي ثمين كما هو وقتك، ادفع لي وترجل في أمانة الله...

لم يرد عاصم عليه وعيناه شاخصتان، ثابتتان كحجرين صغيرين مطمورين في الرمل، غارق في أحلامه، وكأنه في كوكب آخر...

بعد أن وصلت روحه إلى بلعومه ترجل السائق منفعلاً من مكانه وفتح باب السيارة الخلفي، ونفض عاصم بقوة وهو يدمدم بصوت مخدوش كطبل مثقوب:

- قلنا لك وصلنا ولم تسمعنا ولم ترد علينا! كيف هذا؟ ماذا تريد؟ لماذا لا تتكلم؟ ثم ردد بلهجة جامحة ومداعبة:على بختك يا رجل، لا تفعلها وأنت في سيارتي ومازلت لم تدفع أجرتي!

وعاصم نائم في عمق ليس له قرار... وعندما هزه مرة أخرى سقطت الحقيبة من بين يدي عاصم، فرمقها صاحب السيارة بنظرة مبهمة حاسدة كاسحة، كالريح الشتائية العاصفة التي تكنس وتمسح كل ما هو أمامها... لكنه ذهل حين لامس جبين صاحبنا الحالم ورآه باردًا كالثلج، فعرف بأنه قد فارق الحياة...

فتح الحقيبة بقلق وبأعصاب متوترة، وبعينين زائغتين، وبملامح قاسية كانت أقرب إلى الذعر، وبالصدفة انسكب عليها ضوء

المصابيح الواقفة كالمشانق في الشارع، فلمعت سبائك الذهب وتوهجت في عينيه فجأة كلهب القناديل وكأن تلك السبائك غسلت للتو بالزيت...

تردد بحواس تخدرت فجأة، أجال النظر فيما حوله بخوف مستطلعًا كل الاتجاهات، بدأ يلهث وضربات قلبه تتسارع كمن جرى أميالاً راكضًا، ثم قرر بشكل مباغت وسريع أن يدسها بشكل محكم غير مرئي بوزنها الثقيل الثمين في صندوق السيارة، ثم أخرج هاتفه المحمول وهو يهز رأسه آسفًا مداريًا خوفه، بعد أن غسله عرقه من رأسه إلى قدميه واتصل بالشرطة ليبلغهما بممات ابن المقرودة الخائبة راكبه الفقير المعدم، فجأة وهو خالي اليدين!

ملح العيون

يقول برناردشو في إحدى مسرحياته :

الرجل باستطاعته أن يصل إلى أعلى القمم، لكنه لا يستطيع البقاء والعيش هنالك لمدة طويلة.

وصلت خليل رسالة في يوم عطلته من العمل التي انتظرها طويلاً. كان في حديقة منزله المسورة، الحافلة بالأشجار الظليلة الباسقة، مستلقيًا وكتابه المغلق في يده، وقهوته المفضلة الإيطالية التي جهزها بنفسه بجانبه بعد أن مزجها بالحليب المركز؛ سارحًا، هائمًا، حالمًا بالنهار الذي ينطق بالجمال، حيث السماء الصافية الزرقاء واللامعة، يستمتع كما يستمتع رأس الجبل حين تقبله السحاب، فتتيه قمته وتتوارى عن الأنظار كما يتوارى المرء في الظلام، هكذا كان خليل في ذلك النهار حيث الهدوء النسبي الذي لا يعكره سوى بعض الأصوات التي تعوَّد على سماعها، تلك التي تطلقها بعض الحيوانات الأليفة هنا وهناك، ونسمات الهواء النقي التي تلعب مع شعره برفق وتضفي على روحه هيام مجنون.

كان لذلك الصباح وقع على نفسه، فخال له كأنه في مكان ما من الجنة؛ إذ يعيش هناك منذ عشرة سنوات تقريبًا، في قرية صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها المائتين، أغلب ما يميزها أبقارها السمينة التي تتمتع بنظافة وصحة لا نجدها في أبدان أفضل شعوب الشرق وأغناهم، وعددها يفوق عدد سكان القرية، تلك المزروعة، أقصد الموجودة في الجهة الغربية من ريف باريس... باريس، تلك المدينة التي تكنسها الرياح في الخريف، وتغسلها الأمطار في الشتاء والربيع، وتجففها أشعة الشمس في الصيف؛ وهي مسقط رأس الثورات والحرية والاستقلال؛ ولكن ما دخل خليل في كل هذا؟!.

لقد جاء خليل من العراق خائبًا، مسحوقًا، مهزومًا ومُطَاردًا من قبل قوات الأمن، سعيًا إلى الأمان... وها هو اليوم، وبالتحديد في ذلك النهار تصله تلك الرسالة الترابية اللون، لتقطع عليه خلوته، وتنزع منه سكينته، فتلبد مرتبكًا وهو مازال لا يعلم ما في داخلها، فقد كانت محكمة الإغلاق ومشمعة بإتقان، لا يتكهن عن ماهيتها حتى الشيطان!.

رسالة لم يكن ينتظرها، يحدق فيها بقلق ويمسكها بأصابع متشنجة، مرتعشة... يقلبها بحذر وخوف ورهبة، كأنها قطعة حديد ساخنة، ولم يفضضها؛ يقف باستسلام مشدوهًا بشكل مائل، متثاقلاً، فبدا بوقفته المائلة تلك كمغفل يثير الرعب والأسى...

للرسالة غلاف سميك غامق بلون التراب - كما قلت - وكم يهاب ويخاف مثل تلك الرسائل... حيث تتحول لحظاته إلى رعب حقيقي قبل أن يفتحها؛ لعلمه المسبق أن مثل تلك الرسائل لا تأتي إلا من دوائر الدولة ذات السلطة والسيادة، كدائرة الضرائب أو الأجانب مثلاً، أو من أقسام الشرطة... فتجمد الدم في شرايينه دون أن تكون له فكرة بعد عن محتوياتها، فكانت حالته في تلك اللحظات أسوأ من حالة الأبكم في أشد نوبات عصبيته وانفعاله...

تزوج خليل بشهامة ورجولة وهو في مرحلته الثانية من دراسته الجامعية، عندما كان يعيش في بغداد ولأسباب لا أستطيع الخوض فيها؛ لكنه اصطحب زوجته معه أثناء هروبه، ورُزق في بلاد الحرية طفلين، فتمتع صاحبنا الطيب الراضي القنوع بما كان يود ويرغب من استقرارٍ وأمان، ومن أبرز صفاته الهدوء الذي يقارع فيه صمت الصخر! له سحنة فاتحة اللون، بجبين صاف، خالي من التجاعيد، كصفحة ماء ساكن وقت الفجر، وعينان ذكيتان، وشفتان غليظتان، يعلوهما شارب رفيع كالخيط، من الطراز القديم!

جلسَ مشدوهًا، مصدومًا، مستغيثًا، وبحالة من الشعور بالضياع التام، كمتسول جائع يقتله البرد، بعد أن نسي كتابه المغلق الذي كان في يده بجلسته الوادعة الهادئة منذ قليل في حديقته المسورة؛ دخل غرفة الجلوس، تلك التي استحلتها أشعة الشمس وملأتها دون أن يدري لماذا، كالحالم في يقظته، وبعد أن فقد السيطرة

على نفسه، بذهول محير كالمسحور، وهو يشعر بألم شديد يفطر القلب وبتعب وإرهاق مدمر للنفس وبحلق غزاه الجفاف فاستولى عليه، وهو مازال جالسًا يهمهم، ويغمغم بتجهم، وبلغة منمقة:

- حرقها الله، شيء يرهب النفوس، يا إلهي لا نطلب منك سوى عطفك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

ثم نبر بجبن بعد وقفة قصيرة سحب فيها نفسًا كان مقطوعًا:

- تُرى ماذا فعلت كي تأتيني مثل هذه الرسالة؟ ثم تابع بغصة وبخوف شديد كاد يأتي على قلبه: أستغفر الله، أنا لا أذكر أنني قد ارتكبت يومًا خطأ ما في غربتي هنا، ثم لماذا تصلني أنا بالذات دون الفرنسيين جميعًا؟ شيءٌ لا يصدق!

عندها بدأ يسأل نفسه ويجيبها كالثمل، وهو مازال يحدق في الرسالة بتركيز وحقد مسترسلاً:

- وأين؟ هنا في هذه القرية شبه المنسية والتي لا يمكن رؤيتها بالخرائط بوضوح، لصغرها!

وفي هذه اللحظات يعتريه شحوب قاتل يشبه الموت... فردد معترضًا شارحًا ما يجول بذهنه المتعب، المشدوه وبصوتٍ عالٍ، كالمطعون:

- تُرى لماذا أخاف منها لهذا الحد؟ أبسبب صرامة القوانين هنا، أقصد العقاب والجزاء؟ أم لشيء آخر في نفسي أجهل معالمه؟!

ثم تابع برعب حقيقي منوهًا: يا رب ساعدني، ولا تجعلني أسجن أو أتشرد مرة أخرى.

كأنه متأكد أن العقاب سيكون أحد هذين الأمرين الذين ذكرهما!! عندها وقف محاذيًا لجدار الغرفة التي تحتويه، كأن الجدار سيخفيه أو يحميه! وأردف منهارًا كحيوان مثخن بالجراح:

- كنا سابقًا في العراق نطلب تطبيق القوانين... وهنا ترانا نخاف منها ونهابها كالعقارب السامة! ترى لماذا؟! وتابع بزفرات مجيبًا على سؤاله بسؤال: هل الحياة المريضة التي عشناها في العراق، هي التي جعلت منا أناسًا نخاف من ظلالنا البريئة التي لا تنطق؟!.

ثم بأسى رجع يسأل نفسه ما ردده للمرة الألف مدمدمًا، مخاطبًا نفسه وهو يزر الرسالة بجنون ومقت مميت، ممسكًا بها بأطراف أصابعه وكأنه يمسك بثعبان سام من ذيله، بعدائية وحذر:

- ماذا تحوي هذه الرسالة اللعينة؟! ها... ماذا تحوي؟! وبصوت هامس مضطرب مرتجف خفيض ردد: لعنها الله وردها مغلقة كما هي، ومن أين أتت!!

ثم بسرعة مفاجئة وبضحكة مجنونة نصفها أنين، وبنفاد صبر مكبوت كاد يقتله، مزق طرف الرسالة بمرارة مفرطة، وبعصبية وتوتر ملحوظ بعد أن ردد في صدره هامسًا كلمات تخص الخالق بذعر وارتياب حاسمًا أمره، عاقدًا العزم على تكملة ما بدأ به،

وهو يحدق ويتابع حروف الرسالة بنهم غريب، وكأنها ديدان تسير أمام عينيه، لاهثًا كالذي انتهى للتو من ارتقاء سلم عال، متابعًا ما جاء فيها:

"السيد خليل عامر المحترم...

يسرنا أن ننقل إليك خبر وقوفنا على السارق الذي سرق محفظة نقودكم قبلَ ثلاث سنوات، وكما تعلمون من بلاغكم المقدم في ذلك الحين؛ حدثت السرقة بينما كنتم جالسين مع عائلتكم تتناولون طعام الغداء مع عائلة ابنة خالة زوجتكم وأولادها، في المطعم الصيني في روتردام في هولندا في يوم عيد رأس السنة الميلادية، كما هو مدون عندنا؛ فبعد التحريات الدقيقة، ظهرت لنا صورة السارق من خلال إحدى كاميرات البنك الذي كان يسحب فيه النقود من حسابكم الجاري في البنك الذي تنتمي إليه ودائعكم المالية في ريف باريس؛ إذ اتضح لنا أنه استطاع فك رموز الأرقام السرية بسرعة وببراعة وخفة نادرة وساحرة، حتى تمكن من سرقة ما هو موجود في حسابكم الجاري كله الذي قُدر بمبلغ ٥٠٠٠ يورو، لذا نود إخطاركم بأننا بعد تنفيذ القبض عليه ستتم محاكمته بتهمتين: السرقة والتلاعب بأوراق رسمية لا تعود إليه.

لكن وجدنا أنفسنا مجبرين بأن نقول لكم: إننا لا نستطيع القبض عليه وتقديمه إلى المحاكمة لأنه يعيش في هولندا، وهو حامل جنسيتها، واتضح كذلك أنه لاجئ عراقي يعيش هناك منذ حوالي

٢٠ عامًا، ويتكلم اللغتين العربية والهولندية بطلاقة ولباقة، كتابة وقراءة، لذلك استطاع فك الرموز السرية، لأنها كانت موجودة أصلاً في محفظتكم كما ذكرتم أنتم ومكتوبة باللغة العربية؛ لضعف ذاكرتكم، فدونتموها لهذا السبب، ولم يخطر على بالكم أنه من الممكن أن تسرق من قبل شخص يجيد العربية؛ وبناءً على ما تقدم، توجب إخطاركم بأن...".

رفع خليل رأسه من على الرسالة فجأة، وكأنه تذكر شيئًا ما يهم القضية! وردد مخنوقًا وبنبرة احتجاجية بعد أن شعر أنه قد أصيب في الصميم، وباتت أي محاولة لتهدئة نفسه مشكوكًا في فائدتها، جفل مرتاعًا مما قرأ، بلع ريقه الناشف بصعوبة بالغة، وهو يشعر بمعاناة عميقة، خانقة تتحرك وتجول، وتنهش داخله، كتعاسة الشك: ما هذا؟ لقد بانت الرسالة وكأنها نص مسرحي محكم، وكما يقال الستائر مسدلة، والمصابيح مضاءة! ثم برمزية وغموض دعا:

- يا إلهي أسعفني بحل يُرضي جميع الأطراف!

وفجأة علا صوته مجيبًا:

- أي أطراف أقصد؟

وتابع بعبوس:

- لقد فسرت الرسالة الحادثة بشكل لا يقبل الطعن فيها أو الشك بمحتوياتها... لقد كان حدسي صحيحًا منذ البداية، فقد كنت خائفًا

منها وقلبي يقرصني كلما حدقت فيها، وكأنها لعنة فرعونية، تبًا لها، ولي!!

ثم بلهفة مفاجئة نهض بسرعة خاطفة كالملدوغ وهو يقول:

- لن أخبر أحد بوصول هذه الرسالة، حتى زوجتي، وليسامحني الله على فعلتي هذه، وتابع وهو يشبك أصابع يديه بإزدراء ويأس غير معقول، محطم الفؤاد وبنبرة منكسرة مستسلمة، وبعزيمة مثبطة:

- لقد عادت بي الرسالة إلى زمن كنت قد نسيته، وفوضت أمري إلى الخالق عز وجل، ولكن ما العمل الآن؟!.

ثم قرر مع نفسه متملصًا من حماقته عازمًا على استكمال قراءة الرسالة، مهما كانت الأخطار التي قد تنتج عنها، أو المفاجئة التي ربما تكون عظيمة من معرفة من هو السارق الحقيقي! ثم بدأ دمه يأخذ بالنشاط والاندفاع متصاعدًا شيئًا فشيئًا، ودون تكلف وهو يحس وكأن قلبه أصبح فجأة من خزف، وأنه يسيطر على توتره بشكل ملفت ومثير لشخصه، الذي كان قبل قليل حانقًا خائفًا ومترددًا، ثم انحنى على الرسالة وقرأ بشغف منقطع النظير، وبروحية عالية، مهيئًا نفسه للكارثة، كمن يتوقع شيئًا مروعًا، متممًا ما جاء في الرسالة...

"السارق هو ابن ابنة خالة زوجتكم، إذ اتضح أنه كان قد سرق محفظة نقودكم قبل خروجكم من منزلهم، وقبل التوجه إلى

المطعم المذكور، وقد انسل معتذرًا أثناء انشغالكم في تناول الطعام، وأكمل جريمته بسرعة خاطفة، كسارق محترف بعد أن كان له الوقت الكافي من التخطيط والتنفيذ، وهذا ما حصل بالضبط، عندها رجع قافلاً إلى المطعم دون أن يجعل أحد منكم يشعر بما قد قام به من فعل شنيع تجاه أحد أفراد عائلته، إن صح التعبير. وبهذه الحالة التي أمامنا نرى بأنكم تستطيعون تقديم الشكوى إلى شرطة روتردام إن شئتم، ولكن الزمن هنا لم يكن في صالحكم، فقد مضى على السرقة أكثر من ٣ سنوات، ومع ذلك فالشرطة الهولندية هي المسؤولة وهي الجهة المختصة لإلقاء القبض عليه وتقديمه للمحاكمة، بحكم كونه مواطنها ولسنا نحن. لذا نترك لكم حرية الاختيار في الشكوى من عدمها...".

الشرطة المركزية لمدينة باريس

الذليــل

يحسب البعض أنفسهم بقليل من الدموع، وبكثير من التمثيل التراجيدي أنهم يستطيعون تمرير قضاياهم على الغير، لكنهم تناسوا أنهم ما أن يتعروا، يظهرون، ومن حسابات ونظر الآخرين على أنهم من فئة البشر يسقطون، بعدها في الحياة أمواتًا يصبحون، وهم غافلون لا يدركون.

ما أن ركن ستار الذي يعيش في بروكسل -عاصمة القرارات الأوربية- منذ قرابة خمسة أعوام سيارته في تلك الليلة المقمرة من شهر أيلول، التي تهب فيها النسائم من كل جانب كالعطر، لطيفة ورقيقة، والنجوم تتمايل في السماء كأنها عيون قطط لامعة، أو كماسات متوهجة وهي ترصع صدر الفضاء، في المكان المخصص والمسموح به تحت دار صديقه عباس الذي أراد زيارته بعد اتفاق مسبق بينهما؛ ما أن ترجل من سيارته وحط قدمه على أول درجات السلم الخارجي المقابل لباب شقة صديقه، حتى سمع صوتًا مدويًا كالانفجار خلفه...

كان ستار شابًا ذواقًا، خفيف الظل، لطيف المعشر، مرهف الإحساس، يحب النكتة ويرتاح للمزاح، متساهلاً بسيطًا ومتواضع إلى حد يصل أحيانًا حدود اللعنة، حاضر الذهن، سريع الخاطر، نظيف الكف، شهمًا لا يساوم على الحق؛ يتمتع بصوت ناعم، هادئ، وبسمعة راقية معروفة كسمعة الياسمين، ولم يرد في تلك الليلة سوى زيارة صديقه عباس؛ لكن الصوت المدوي الذي سمعه من خلفه حال دون تحقيق رغبته...

أدار ستار رأسه فرأى أحدهم يحاول تغيير مسار سيارته بطريقة وجدها صعبة ومعقدة كأن سائقها ثمل أو مسطول... همَّ إليه راكضًا، ثم رجع مشدوهًا في حالة ذهول كأن قلبه في معدته، رأى سيارته قد تحطمت بشكل مروع، في مؤخرتها بعد أن تناثرت على الأرض حطام قطعها وأجزاء مصابيحها الخلفية، فبانت تلك الأشياء في تلك اللحظة من الليل المقمر تلمع كقطع الزجاج على الشاطئ... صاح ستار كالموجوع بسائق السيارة ملتهبًا بحماس وبلهجة ما بين الطلب والأمر:

- توقف!!

بعد أن رآه يهمّ بالهروب...

توقف السائق ثم فتح قليلاً زجاج نافذته وهو يقول مترنحًا بعنجهية خاملة:

- ماذا تريد مني، بابا؟!

- أنا لست بأبيك، ثم أعلن متجاهلاً نظراته الشاردة، الزائغة: أريدك أن تتوقف، وأردف برصانة أقرب إلى التأنيب: لقد سمعت الصوت المدوي الهائل الذي أحدثه ارتطام سيارتك بسيارتي الواقفة... وتابع مرتجف الأطراف: ترجل وانظر بنفسك.

بلسان ثقيل:

- أنظر إلى ماذا؟

- عجبًا، كيف تنظر إلى ماذا؟ ثم أضاف منفعلاً بعد أن وجد نفسه في حال لا يعلم بها إلا الله: انظر ما فعلته منذ لحظة...

- أنا...!!

(قال ذلك كأم لا تشك بطهارة ابنتها) ثم شرع والدهشة تطل من عينية بعد أن نسي نفسه، فعلا صوته:

- أنا لم أفعل شيئًا، وإذا كنت تقصد سيارتك، فهي التي صدمت سيارتي!! ثم لوى شفتيه ومصهما بلسانه وقال: بابا، إذا كنت لا تصدقني، انظر إلى سيارتي وما حصل فيها ثم شهق وسكت...

- أطالبك أولاً بالترجل واترك أبيك، ثم ننظر ونعاين الحادث وسنعرف وقتها من هو المتسبب... وهو ينظر له بعينين متعبتين بعد أن جعله يخرج عن طوره واستطرد: لقد نسيت شيئًا مهمًا، هو إني لم أكن أصلاً داخل السيارة، فكيف صدمتك وأنا لم أكن فيها موجودًا؟!.

- هراء... ما تقوله وحق آلهتي التي أحبها وأعبدها، هراء... كل ما تقوله من نسج خيالك المريض يا هذا، فأنا كنت جالسًا أتأمل الليل الهادئ الجميل وانظر إلى هذا القمر البهي الساطع، وصاح فجأة كالملسوع: ألا تراه، انظر إليه كيف يبدو؟ كالشمس في النهار وحق آلهتي!

وتابع بصوت متهدم:

- ماذا قلت قبل قليل؟ ها... نعم تذكرت، لقد كنت أقول إنني كنت جالسًا في سيارتي أتأمل منظر السماء ولم أسمع سوى أنك أتيت كالمجذوب وصدمت سيارتي النظيفة الجميلة التي كانت قبل قليل رائعة، لكنك جعلتها الآن حطامًا لا تساوي شيئًا...

قاطعه ستار بأعصاب مثارة والغيظ يغالبه:

- إذن لم يبقَ أمامي سوى استدعاء الشرطة، وهم سيحكمون بيننا بالعدل، وسنعرف منْ هو المتسبب في هذا الحادث اللعين الذي لا يمكن له أن يحدث لو كنت على غير ما أنت عليه الآن...

همَّ بإخراج هاتفه للاتصال بالشرطة، فترجل صاحب السيارة بسرعة، رآه ستار بوضوح... شاب في مرحلة الهموم، لم يتجاوز ربما الثلاثين، زائغ النظرات، مضطرب الفؤاد، واهي القوى، يميل إلى السمار، رفيع طويل ولظهره من الأعلى انحناءة كالحدبة، وهو يحاول بصعوبة الوقوف على ساقيه، أشعل لفافة

ثخينة لم يدرك ستار نوعها، وبدأ ينفث دخانها المتصاعد بوجهه كالمعتوه وهو يردد متوسلاً:

- توقف أرجوك، لا تتصل بالشرطة، كنت أمزح معك، وسأله مباغتًا كأنه صديق الطفولة الحميم: اللعنة على الشيطان، ألا تعرف المزح في الليل يا هذا؟ اصفح عني إن كنت قد أسأت إليك...

ثم بدأ يبكي وينوح بطريقة مروعة كغجرية رومانية اغتصبت للتو، ونثار ريقه ينتشر في المكان كالرذاذ، بعد أن زم شفتيه وقطب حاجبيه وهو يركع على ركبتيه أمام ستار وكأنه يتعبد به، وتابع نواحه مسترسلاً:

- بابا، الرحمة حلوة، ولا تكن سيء النية كمحققين الشرطة، ثم خفف من لهجته ونبر: اعطف على أخيك المسكين هذا (وهو يشير بأصبعه نحو صدره) فأنا أعيل خمسة أطفال أكبرهم في العاشرة، وزوجة لا تبصر، لا تهش ولا تنش، بالإضافة إلى ذلك لا أحب رؤية رجال الشرطة، أسكن هنا وجئت للتو راجعًا من عملي متعبًا جدًا، فقل تركيزي، ولم أر أو انتبه لوجود سيارتك الرائعة هذه...

- وماذا بعد، بابا؟ (قالها ستار باستهزاء)

- أرى إننا نتفق، وهذا خير الحلول!!

- أنا موافق. (وردد ستار في خلده: أطفئ الله نورك عينيك الخافت أصلاً).

بابتسامة صفراء طافية على شفتيه لهج:

- وأنا كذلك وحق هذا القمر الذي يشهد موقفنا!

- دع القمر في سمائه، وقل لي ما هو اسمك، واكتب لي كل المعلومات المتعلقة بشركة تأمين سيارتك، عندها نكون قد حققنا ما نصبو له بسلام وهدوء، بعدها يمكن لك الذهاب إلى زوجتك التي لا تهش ولا تنش...

جعجع بحماس كنعجة شاردة من حظيرتها:

- أنا شاهينان من أفغانستان والحمد لله، بابا!

ثم تابع برنة غير مريحة:

- نعم، سأكتب لك كل شيء، ولنجعل رجال الشرطة ينامون في هذا الليل الجميل الهادئ، لا يهمنا شيء ما دمنا سنتفق، نعم علينا أن نتفق إذا أردنا أن نكون في مأمن من الشرطة وأسئلتهم التي لا تنتهي، وإزعاجاتهم التي تدعو النفس إلى التقيؤ!

سعل سعالاً موصولاً كريهًا، وكأن روحه ستزهق... ثم أضاف منهكًا:

- ولكن عليك أن تعطيني معلوماتك أيضًا كي أعطيها للتأمين الذي أتعامل معه، وسوف ترى ما لم تصدقه من رجل أفغاني

والحمد لله، سأجعلهم يدفعون لك كل التكاليف والخسائر التي سببتها لك وبسرعة لا تحلم بها، نعم، ماذا تظنني؟! هيا اكتب لي ذلك وستكون بعون الله وتأييده من الرابحين...

قال ستار محدثًا نفسه بصوت خفيض: "سلخ الله رأسك... لا تذكر اسم الرب على لسانك الملتوي الثقيل هذا وأنت مسطول لا تستطيع التركيز ولا حتى الوقوف، وحالتك مقلقلة وأمورك مضطربة"، وتابع بذات الرنة الهامسة: أنت ينطبق عليك المثل الذي يقول "أسرحه مع الغزلان، يعود إلينا مع الثيران"، ثم تبادلا المعلومات بصمت مطبق، وطار ستار بسيارته التي كانت تصيح وتقرقر دون أن يكون له مزاجًا معتدل، طيب، بعد الذي حصل لزيارة صديقه عباس...

لم يقد سوى بضعة أمتار حتى داهمته الشرطة فجأة... فاستوقفوه عنوة، بدا الجو مشحونًا بالرهبة والخوف، وبسرعة خاطفة تم سحب رخصة قيادته وأوراق سيارته بعد تفتيشها بشكل مفزع ومروع، وهو يقف بجانب السيارة وبقرب أحد رجال الشرطة وهو يتابعه بحذر شديد ويردد آمرًا:

- لا تتحرك من مكانك، التزم الهدوء حتى يتم الانتهاء من تفتيش السيارة...

لم تمضِ سوى دقائق من الصمت الثقيل الذي خيم عليهما وستار مكبل دون قيود حتى اقترب منه رجل آخر من الشرطة وهو يبتسم بخبث رهيب وعجيب ويقول له بانزعاج بدا مصطنعًا:

- ماذا كنت تتوقع؟ تستطيع الهروب!!

أجابه مستغربًا وهو يغمض عينيه وكأنه يستريح:

- الهروب!! ممنْ؟

- لا تحاول النكران... لقد ضبطناك وأنت تقود سيارتك هاربًا من موقع الحادث بعد أن صدمت سيارة المدعو شاهينان عندما كنت تحاول الرجوع إلى الخلف، في حين كانت سيارته مركونه... وهو الذي أبلغنا بهروبك بعد تركك مكان الحادث دون محاولة إخطارنا بما حصل... ثم أردف بهدوء قاتل: ماذا كنت تظن، ها...؟.

لم ينبس ستار ببنت شفة، بقي صامتًا، جامدًا كالصخرة على شاطئ، وهو يتذكر بكاء وكلام شاهينان الأغبر، عندما كان يبكي أمامه، وكلماته التي كان يتغزل بها: "أنا من أفغانستان والحمد لله!!".

تلألأت دمعة بقيت متأرجحة في مقلتيه لم ترغب بالانحدار وهو يستمع بذهول لاتهامات رجال الشرطة النازلة عليه كالصاعقة، يرسل نظرات حيرى ويضرب كفًا بكف.

عجائب يا زمن

يعتبر أمجد نفسه في دنيا الغربة من المحظوظين، خاصة بعد أن اشترى لعائلته منزلاً عتيقًا صغيرًا جميلاً حسب رأيه، وهو يردد لعائلته بأنه سيعمل من هذا التشييد القائم شيئًا آخر يضرب به الأمثال، ليس في المحلة التي يقطنها فحسب؛ بل في كل الأرجاء، القريبة منهم والبعيدة...

وها هو اليوم يأتي بأحدهم من الرجال الذين تهتز الأرض تحت أقدامهم إن تحركوا، وكأنه من طائفة الجن، ما شاء الله، طول بعرض، بصوت جهوري خارق مجلجل ومدمر بشاربين عريضين كبيرين كذيل قطة سمينة؛ وأمجد يطلب منه بحرص وحذر متفائلاً أن يساعده فيما فكر فيه وما اتخذه من قرار بعد قلق وتفكير وانتظار؛ لكنه تفاجأ بشكل مريب من رد الرجل الغريب وهو يجيبه مستنكرًا، صارخًا:

- ماذا؟! تريدني أن أقتل؟!

نظر مسحورًا من الرد مذهولاً وملتهبًا وقال:

- تقتل!! ثم أردف أخينا المحظوظ متماسكًا صاهلاً: أنا طلبت منك أن تقتل؟! كيف، متى وأين؟!

بحنق لا يتزعزع:

- بالتأكيد أنت الذي طلبت مني وحق سيدي المسيح أن أقوم بعملية القتل، ومن غيرك!

- استغفر الله، كيف تفسر طلبي على إنني أريد منك أن تقتل؟!

- الموضوع لا يحتاج إلى نباهة كبيرة ولا إلى ذهن متقد، فالمسألة واضحة كقرص الشمس، وأنا أحذرك مما تطلبه مني هكذا بكل علانية!

كان أمجد في مرحلة العطاء، لم يكمل الثلاثين؛ متزوج وله ثلاثة أطفال، أكبرهم في الثانية عشر، يقطن ألمانيا - قسرًا - منذ عشرة أعوام، بعد أن تعذرت عليه سبل الحياة في وطنه، ذلك الذي تآلفت عليه المحن من كل صوب وناحية، وباتت الحياة بالنسبة له وللكثيرين لا تطاق، فأجبر على الرحيل...

يتمتع أمجد بصوت مميز حاد، عريض وحنون في نفس الوقت، كصوت آلة موسيقية شرقية، له عينان جميلتان بلون اللوز وأنف صغير وشفتان رقيقتان وكأنهما لفتاة، بطول يتمناه الرجال- متر وواحد وتسعون سنتيمتر - وها هو اليوم يناقش الرجل الألماني الذي أحضره للغرض الذي أرقه كثيرًا من ساعة شرائه للبيت، ولم يكن له من هم سوى إتمام ما عزم عليه، خاصة وهو يرى ما يضايقه أمامه ليل نهار مُطلاً على بيته ويتلصص النظر إليهم في

كل خارجة وداخلة، لذلك اتخذ قراره بعد تفكير طويل؛ لكن الأخير غاضب وحانق ويرفض بإصرار عرضه صارخًا:

- لا تجعلني أتصرف معك تصرفًا آخر غير حضاري قد لا يليق!!

بامتعاض ردد أمجد مستفسرًا:

- تصرف حضاري! ثم استطرد متهالكًا: لماذا تتكلم معي هكذا؟ ما الذي صدر مني كي تقول ذلك؟!

- كيف لا تعلم؟

- صدقني... يا الله... لماذا لا تريد أن تصدقني! إنني أجهل سبب انزعاجك وثورتك!

- إذن أعد لي طلبك وما قلته مذ قليل...

- نعم، بكل احترام، وأسهل من هذا لا يوجد، وعندنا في العراق يقولون مثل هذه الأحوال "غالٍ والطلب رخيص"...

قاطعة صاحب الصوت الجهوري زاعقًا:

- يا يسوع المسيح لا تخرج عن الموضوع الذي نحن بصدده، لقد طلبت مني بالتحديد وبصريح العبارة أن أقتل، وهأنت تذهب بعيدًا وتحاول المزاح في أمر لا يحتمل النكتة!

وبعد أن أخذ نفسًا عميقًا، تابع بذات الرنة القاصفة:

- بل أستطيع أن أقول لكَ إنني لن أتركك هكذا حرًا، أقصد، عليّ أن أخبر الشرطة بكل ما قلته لي، لأنك شخص - من الظاهر- لا تريد العيش هنا بسلام!

(قال جملته الأخيرة وهو يغمز وكأنه يتشفى).

- الشرطة!!

- بالطبع، كما سمعت، الشرطة!

- ولكن... ولكن لماذا؟ هل أسأت إليك بشيء؟ هل تجاوزت حدود اللياقة معك؟ هل شتمت أو تفوهت بكلام بذيء مثلاً؟ أرجوك قل لي ما الذي فعلته حتى تريد إخبار الشرطة؟ بل عن أي جريمة تريد أن تخبرهم؟ ومتى اقترفت جريمة وأنا كما ترى ماثلاً أمامك منذ عشرين دقيقة ولم ننجز شيئًا مما تحدثنا به!

(قال ذلك وكأن روحه تصعد مع كل كلمة ينطق بها).

بحذاقة صاح مغترًا بهوس كالجريح:

- ها أنت تؤكد كلامك للتو ثانيةً! لم ننجز شيئًا مما تحدثنا به! وهذا هو صلب الموضوع... الشروع بالقتل مع سبق الإصرار والترصد!

قال ناعيًا كبوم عجوز:

- أي شروع وأي مشروع هذا الذي تتحدث عنه؟ وما هذا الترصد الذي عنيته؟ ها...!

ببرود قاتل أجابه الرجل الغريب كالزاهد في الحياة:

- طلبت منك أن تعيد عليّ ما قلته لي ولم تفعل!

رد ناحبًا منهارًا:

- سأكرر لك ما طلبته وبأعلى ما عندي من صوت، ولمَ الخوف؟ بل أنا لست بجبان أو خائف، سأعيد عليك ما طلبته: لقد قلت لك وبالحرف أن تقص هذه الشجرة المخيمة على بيتنا وفاردة طولها علينا، حاجبة ضوء الشمس في النهار وطلعة القمر في الليل، ولا نريدها، لذلك طلبت منك أن تقصها وتخلصنا منها، نظرًا لخبرتك ومعرفتك الجيدة بقص مثل هذه الأشجار الباسقة دون أخطار أو تهديد لأحد أو لمنزلنا...

ثم أضاف متشنجًا، مزمجرًا:

- هل هذا جرم أو حرام؟! وهل هذا أمر بالقتل كما تدَّعي؟ من أين أتيت بهذه الأفكار الغريبة؟

بذات الرنة والبرود الناعم الخالي من الخشونة:

- ها أنت تعترف إذن كقدير خبير؟

بقلب منقبض:

- أعترف بماذا؟

- بأنك طلبت مني أن أقتل كائنًا يتنفس!! له في الحياة نصيب مثلك ومثلي ومثل باقي الكائنات الحية، تطلب مني أن أقتلعها من

جذورها دون ترخيص من الجهات الرسمية الحكومية، دون أن تفكر ماذا تزرع بدلاً عنها أو كم عدد الأشجار التي ستزرعها لتعوض وجودها هذا لو سمحت لك الدولة بقصها!

تابع بلؤم مستطردًا منشرحًا:

- لم تفكر بكل هذا وكل ما جال بخاطرك الشرير الذي يريد نشر البلاء والوباء... هو قتل تلك النفس البريئة الكائنة في خلق الله دون سبب وجيه يجعلك تفكر بالتخلص منها وبهذه السرية التامة رغم الحدود والقيود!!

ثم ناح بصوته المجلجل:

- لا لن أشترك معك بهذه الجريمة، ولن ألوث يدي بسائل هذه الشجرة المقدسة البريئة... لا لن أفعل ذلك!

تهالك أمجد متأثرًا مصعوقًا بكلام الرجل الذي جعله يردد مع نفسه دون وعي كالمحموم هاذيًا: "في بلدنا يُقتل الإنسان ويداس كالحشرة، دون رادع أو اعتبار أو حتى سبب وجيه مقنع؛ وهنا يخافون ويحرمون، بل يجرمون من يريد قص شجرة واقفة على أرض بيتي، وتعتبر ملكي! صحيح من قال: عجائب يا زمن نعيش ونرى".

الـمـلـعـــون

تُرى لماذا خُلق الإنسان هكذا؟ يدق الأرض بقدميه
بقوة، لعله يجد المبررات أو يستخرج منها العيوب
والموبقات التي تجعله يكره ما لا يريد أو يطيق، في
حين نراه يذوب في هوى محبوبته، يتغنى ويترنم
بذكرها ويعبد حسن تصويرها وجمالها، كأن سر الله
متمثل بها، دون سبب معقول واضح!!

جلست أتذكر الملعون ابن السائبة الذي لم أجد له اسمًا مرادفًا بالعربية. ذلك الذي خلع قلبي من مكانه دون أن أفقه لماذا؟ وأضحك خجلاً من تصرفاتي الطفولية غير المشرفة لرجل مثلي، وأنا أتذكره...

أصرَّ ابني الصغير على اقتنائه وتربيته والاعتناء به؛ لكن كفة ميزاني كانت دائمًا إلى الرفض تميل. حتى استغلَّ يومًا ساعة نجاحه في صفه، فسدَّ عليَّ منافذ الرفض، وفتح لي أبواب القبول على مصراعيها فأذعنت لطلبه، واصطحبته إلى حيث يبيعونه...

ما إن وصلنا المكان، حتى شعرت بالغثيان، وأردت أن أرجع قافلاً من حيث أتيت، لولا أنه ذكرني بوعدي وقسمي، فخجلت منه ومن نفسي وقررت البقاء، حيثما ينوي الشراء...

كان ولدي الصغير عفريتًا لا يروض بسهولة، وكم من أيام حاولت أن أقنعه أو عن رأيه أعدله، لكن إصراره كان كبيرًا، وعناده يذيب الحديد إن لامسه. لم يفد معه رجاء، ولا تبريراتي الصادقة، خوفي منه، عدم استطاعتي أن أكون معه تحت سقف واحد، لا يمكن النوم بقربه أو حتى بجانب غرفته، يا إلهي، ما هذه الورطة؟ لقد كنا صغارًا نصنع ألعابنا بأنفسنا من نفايات الأشياء، ونتسلى بها ونحافظ عليها أكثر من ثيابنا التي علينا، وأولادنا ما كنا نفعله لا يصدقون! ولا يقتنعون إلا بالملاعين المتمردة التي لا يروضها شيطان ولا إنسان.

ركب رأسه حتى جاءت ساعة الصفر بالنتيجة المدرسية المشرفة، فلم أستطع الممانعة بعد؛ وها أنا معه نبحث عن الملعون قصير الرقبة... والروائح تعط من كل ركن كغاز مسموم...

قادني من يدي اليمنى، وكأنه يعرف المكان كساحر لا يصعب عليه شيء، وأنا أضع يدي اليسرى على أنفي بقوة تجنبًا تلك السموم المتطايرة التي اعتقدت أن لها ألوان الموت الأزرق.

صاح بفرح غامر وبصوت عميق، حيث خرجت الكلمات من حنجرته كبيرة لا تعود لصبي في عمره:

- ها هو... أخيرًا قد وجدته!

- يا حفيظ، يا رحمة الله، ما هذا يا بني؟!

ثم برصانة أقرب إلى الحكمة عقبت:

- يا حبيبي، اقتنِ شيئًا آخر، أو دعنا ننظر في المتجر من جزئه الآخر، لعلنا نجد شيئًا أجمل وأنظف وربما يروق لي كما يروق لكَ، وتابعت مناكدًا: ها... ماذا تقول؟.

زمَّ شفتيه، قطب حاجبيه، وعلق كمعلم محنك:

- أنا لم أحلم إلا به، ويجب أن أقتنيه، فأنا لا أحب من بعدكما- أنت وأمي – غيره (قال ذلك وهو يصلب يديه على صدره).

- حسنًا يا بني، لكن انظر إلى أنفه! سبحان الله، يجفف العقل في الرأس! انظر... كيف يلتهم الأكل، يا له من زنديق مارد! لا يستحي ولا يخجل كخنزير بري صغير.

برنة أقرب إلى التشويش:

- لا تقل هذا بحق من أحب، وإلا خاصمتك!

ثم رجع إلى لهجته الوادعة، الماكرة بعد أن صقل صوته وأضاف مواربًا:

- هيا يا بابا لنشتريه ونذهب من هنا، فأمي مشتاقة ومتلهفة جدًا لرؤيته، هيا...

رجعنا قافلين، والملعون ابن الخائبة يجول ويصول في قفصه في صندوق السيارة بلا وجل أو خجل، وابني يهتز جسمه بحمية لكل وقع منه يسمعه، مأخوذًا، طائرًا من الفرح وهو يضحك... فطالت ضحكته وتحولت إلى قهقهات مدمرة كانت بالنسبة لأعصابي... وأنا ألعن الزمن والأيام والساعة التي جعلتني أوافقه على اقتناء لعنته، تلك التي أحملها في سيارتي وأنا صاغر لا أريد.

لم يكن له ولأمه من شاغل غير قضيته، كيف يأكل، كيف يشرب، كيف ينام، ومتى يذهب إلى الحمام... وهكذا تغيرت حياتي ساعة وجوده.

انقلب نظام الهدوء في البيت، وأصبحت الفوضى تعم المكان خاصة في الليل، لازمتني عادة سيئة حديثة الولادة، هي الاكتئاب كلما نظرت إليه، وفي حسنه الجذاب تمعنت!! يا لها من صورة يمتلكها: له شعر قصير كجلد الجمل، خشن وقذر، ذو سحنه كالحة رمادية بلون السخام الفاتح، لا يتعدى حجمه حجم الفأر أو أصغر بقليل، أنفه ينافس فيه أنف الشيطان، أطمس، ويشم ويتحسس كل شيء يراه أمامه، ككلب جائع مذعور، سلاحه الوحيد للدفاع عن نفسه هو العض، له يدين قاتلتان، فتاكتان، كملاقط صغيرة لجذب الشعر عن الوجه، عينان زائغتان،

مضطربتان لا يستحقان الراحة ولا يخلدان للنوم إلا في النهار، رجلاه كقطعتين صغيرتين من الجزر غير مستقيمتين؛ له طبع فيه الكثير من الكبرياء، حيث لا يمكن للمرء من كسب ثقته إلا في أيام طويلة، فكيف الحال لو حاولت ترويض عواطفه والسيطرة على تصرفاته؟!.

ابن المدللة لا يهمه ولا يلهمه شيء، له عناد يفتت الحجر؛ نقطة ضعفه اكتشفتها بالصدفة، فما أن تغير مكانه حتى يصاب بضغط نفسي وإجهاد عصبي، وفرحت للنتيجة المرضية الخطيرة التي توصلت إليها وأضمرتها بحقد في قلبي كالذكرى التي حرصت على عدم نسيانها! لا يشعر بالأمان إلا إذا قذفت له الطعام، وهذه كانت صفة ذا فائدة كبيرة لو أردت الانتقام فوضعتها بحساباتي.

لكن يبقى الأكثر نفورًا ودمارًا عندما يحب اللعب، وأي لعب وفي أي وقت؟ يا الله... لا يحب المرح والرقص إلا في الليل! فأقلق المسحوق ابن الداهية قراءاتي الليلة التي كنت متعودًا عليها.

فما أن يجن الظلام حتى يخرج من بيته ويرتقي دولابه الخشبي فيقرقر كماء فائر في قدر على النار، ببلاهة وغباء شديدين ويركض فيه مثل فأر تجارب، أرعن ومرعوص دون غاية أو هدف، وهو يوصوص بوقاحة قاتلة لا تحتمل في ساعة من سكون الليل، فيفض بصوته الكريه ورائحته التي لا تطاق بكارة هدوء الليل بوحشية لم تخلق لبيت كبيتنا، لقد كان اللئيم كل لياليه

أعياد، أي والله... حتى استمر الحال هكذا وأنا أنصب له العداء وقلبي يضمر البلاء، أتوعد به شرًا، وأنتظر الساعة التي منه أنتقم.

ما أن سافرت العائلة للسياحة والزيارة... حتى قفزت من مكاني مسرورًا وكأنه يوم زفافي المنتظر، فأعددت خطة محكمة لا يعلم بها إلا الله وكانت: تجويعه حتى ما قبل مرحلة الموت، ثم دفع الأكل إليه بكمية تجعله يسمن بسرعة لا تمكنه من الحركة والتنطيط والرقص في دولابه الذي أتلف أعصابي وأرقني كلما ارتقاه، ثم حرمانه من النوم في ساعات النهار التي يركن إليها بعد أن درست حركاته كلها، ودققت في برامج استراحاته، ترفيهه، نومه، شربه وأكله، وعندما حانت ساعة الصفر بدأت العمل بحزم لا يعرف سوى العناد وأخذ الثار...

فما أن خلى البيت لنا، حتى جذبت صندوقه الحديدي المشبك بحذر وكأني أرفع ثعبانًا كبيرًا متمردًا، وضعته تحت مصباح شديد الحرارة والضوء، لأنني عرفت من متابعاتي له، لا يحلو له اللعب والرقص وارتقاء الدولاب إلا في ساعات الظلام الدامس، فما عليّ إلا أن أحرمه من متعة الظلمة، تعمدت أن يكون كل أيامه نهارًا، كي يقبع في بيته لا يستطيع مواجهة النور، لكنه كان عفريتًا كابني، لم يستسلم بسهولة، وبقي ثابتًا في قراره كالجدار، وعناده كعناد الحمار، وهو يرفض محاولاتي المستميتة في تغيير نظام حياته!

آه يا ربي، لقد كان الخبيث السلطان ابن الشيطان كالمياه الساكنة التي لا تعرف مدى عمقها الحقيقي بسهولة، أو كالسور العالي الذي يحجب ما وراءه!!

لكنه لم يصمد طويلاً... انهار الملعون ابن المصعوقة بعد يومين طويلين كانا بالنسبة لي... فتخلصت من أول إزعاجاته اللعينة وأصواته المقززة اللئيمة التي كان يطلقها في كل مرة يخرج فيها للترفيه عن نفسه في الليل، الذي جعل لياليَّ كلها سلسلة من العذاب والشقاء، وها هي الفرصة التي آخذ منه ثأري الذي أضمرته في قلبي ساعة حصوله على الإقامة معنا...

بدأت أكثر من أكله، بل لم يكن لي من هم سوى الاعتناء بغذائه وتزييد كمياته وهو يلتهم كل ما أقدمه له بفرح مريض أرعن، لعلي أستطيع أن أجعله بسرعة يسمن، فتقل بذلك حركته ودبيبه... نجحت في هذا أيما نجاح، فلم يعد يستطيع الوقوف أو الجلوس، وأصبح ككرة التنس، لم تخلق إلا للتدحرج! هدأت الليالي التي تلت نضالي وكفاحي الذي أجهدني من متابعتي له ومراقبتي لتصرفاته والتغيرات التي تطرأ عليه!.

ما أن مضى علينا بعض الزمن، حتى شعرت بالشوق والحنين إلى ابني وزوجتي، بدأت أتذكرهما وهما معه يستمتعان، واللعب بجانبه يمرحان، وبنشوة ساحرة يضحكان...

اكتشفت بالصدفة صفات وأنا أتابعه لم أكتشفها فيه من قبل! لقد رأيته يضحك، ومرة يمد لي يده للقائي كلما اقتربت من صندوقه وهو يتعلق ويتشبث بجدار المشبك الحديدي كالقرد وينظر لي بعينين صغيرتين كحبتي رمان، شهلاوين لم ينضجا أو يصطبغا بالحمرة بعد كعيني يربوع؛ حتى سرت رعشة خفيفة في جسدي، وجعلني أحن عليه، ثم فجأة ودون إرادة بعطف اتجاهه غير محدود، كاد يبكيني!!

أطفت المصباح الذي كنت قد وضعته فوقه منذ أيام خلت! أخرجته من مكانه بحذر شديد، ووضعته في كرتون صغير أعده ابني لهذا الغرض قبل سفره، فوجدته لطيفًا، ناعم الملمس كالحرير، ولم أشم فيه تلك الرائحة الكريهة التي كنت أشمها فيه من قبل! تعجبت لذلك... وقلت في نفسي أخاطبها مستغربًا:

"ترى لماذا خلق الإنسان هكذا؟ يدق الأرض بقدميه بقوة لعله يجد المبررات أو يستخرج منها العيوب والموبقات التي تجعله يكره ما لا يريد أو يطيق، في حين نراه يذوب في هوى محبوبته، يتغنى ويترنم بذكرها ويعبد حسن تصويرها وجمالها، كأن سر الله متمثل بها، دون سبب معقول واضح!!".

تذكرت حينها قول الشاعر العراقي الكبير "تريكو صكَر المراني" الذي قال:

لا تسأل المرء عن شيء يحيره   فقد يعلل لكن يختفي السبب

إذا حسبت الذي يبدو بمظهره   حقيقة، فلقد حلّت بك الريب

غيرت أرضية بيته التي تتكون من نشارة الخشب في الغالب، نظفت بيته وأنا أشعر بسعادة حقيقية غريبة، ألهبتني، ألهتني وألهمتني وأنا أعتني به برفق حتى غرقت في عالم حبه؛ جددت له وعاء مائه، وما هي إلا يومين أو ثلاثة حتى استعاد المغضوب عليه عافيته، قل وزنه بسرعة فائقة لم أتصورها، إذ خفت في بعض الأحيان التي كنت أدفع له الطعام كيفما اتفق وبشتى أنواعه، من أنه سينفق أو يطق لا محال... لكنه كان ابن جنية، جلدًا ولم يصب إلا بداء السمنة التي تخلص منها بخفة كالساحر؛ ثم بدأت عافيته وصحته تتعافى، زاد نشاطه وتحسنت لياقته، وأصبح أكثر قوة وحركة عن ذي قبل كغزال فتي لا يتعب من الركض.

لم أشعر إلا وأنا لا أفارقه، بل لم يعد لي من هم سوى اللعب معه وعنايته والحرص على راحته وسعادته والوقوف على طلباته، بعد أن استهواني وجذبني؛ فوجدت نفسي أتأمله، أسامره وأغني له وأردد على مسامعه كلمات لم أحلم أو أتوقع يومًا من النطق بها على مسامع هذا الملعون الذي قتلني وأحياني دون أن أدري كيف أو لماذا؟! واستغربت جدًا عندما وقعت على سره الذي لم أكتشفه من قبل: كان أكثر شيء يجيده هو الصمت!!

استمرت مطالعاتي المعتادة دون منغصات، ولم يعد يعجبني القراءة إلا بقربه وهو يضحك ويرقص ويدور، وكأنه يريد تسليتي حتى أستمتع وأنا أتابع قرءاتي!! فأصبح تأثيره عليَّ لا

يقاوم ولا ينسى، يترك أثرًا في الذاكرة وعلى الوجه والتصرفات كرياح الصحراء الرملية...

ساحل البحر

الشرقيون غالبًا ما يعيشون حياة ليست مغلوطة
فقط، بل مخلوطة أيضًا ؛ لأنهم ليسوا بحاجة لمن
يقنعهم، بقدر من يأمرهم؛ والكثير من رجالهم
كأطفالهم لا يعرفون في حياتهم غير اللهو والتهريج ؛
والمصيبة هنا : هؤلاء غالبًا ما يكونون من أهل
المدن، فما بالكم إذن، بمن يسكن الجبال والتلال؟!

ما إن أنهوا سباحتهم على ذلك الشاطئ الرائع المستوي النظيف الذي تلمع حبات رمله كالزجاج الناعم، وهو يعرض صدره عاريًا لأشعة الشمس الملتهبة من نهار حزيران في دبي، وكأنه يتشمس هو الآخر مثلما فعلوا مذ قليل؛ حتى غيروا ملابسهم وتهيئوا للرجوع إلى فندقهم قافلين...

كانت زمرة جميل تتكون من ثلاثة أفراد والريح رابعهم، تلعب معهم، ترشقهم بعفوية ساحرة، تدفعهم، ترجعهم، تقذفهم كأمواج البحر بشكل متدافع، متوالٍ وهم لا يستطيعون حيالها ردًا، سوى

التمرد الغشيم الذي لا ينفع، بوقفتهم وهم ينتظرون سيارة أجرة تقلهم...

بعد وقفة قصيرة على الرصيف... شاهدوه يسير ببطء شديد كأنه يحبو بسيارته، ثم توقف بحذر فأعطاهم انطباعًا أنه يجهل أصول القيادة؛ مدَّ جميل رأسه من نافذة الباب الأمامية المفتوحة حتى النصف وأعطاه قصاصة ورق صغيرة تحمل عنوان الفندق الذي فيه يقيمون... قرأها السائق وأشار لهم بيده اليمنى المحروقة اللون بالصعود دون أن ينبس ببنت شفة، فاعتقدوا من الوهلة الأولى أنه أخرس، أو لا يجيد من الكلام سوى رد السلام...

كان السائق متينًا، بشعر أكثر سوادًا من القير، له شاربان بانا متصلبين كقصبتين إذا لويتهما انكسرتا، سبحان الخالق، كيف استطاع هذا (المقرود) أن يصنع بشاربيه كل ذلك؟ محروق البشرة- كما نوهت- كبقية شعب الأمارات الأجنبي الذي يعيش هناك، وهناك لا تجد عربيًا بسهولة، وهذه معجزة بحد ذاتها!!

ما إن غاصوا في السيارة... حتى تكلمت عينا السائق بمرارة قبل أن ينطق لسانه بحزن مهمهمًا، مقتضبًا بلغة إنجليزية ملتوية، مخلوطة بمفردات عربية مأكولة، منقوصة وغير مكتملة، دون مقدمات بالسؤال، وكأنه يمتحن صوته:

- في أي جهة يقع فندقكم؟!

ثم صمت وهو يتلفت نحو البنايات المحاذية للشارع كأنه ينوي شرائها.

- هنا!! ثم أضاف جميل لجوابه المختصر مترنمًا بشعور سائح رجع للتو من البحر: أقصد، لا يبعد من هنا كثيرًا؛ لكن في أي جهة؟ لا أعرف بالضبط، فنحن هنا منذ يومين فقط.

زفر بحرقة متذمرًا مشاكسًا ناحبًا وبكلمات غير مفهومة، محاولاً إضفاء مقدار كبير من العمق أو الرزانة على صوته، ولم يفلح فظهر مخدوشًا:

- نعم، سأعتني بكم جيدًا! لا تقلقوا وحق الكتاب ويوم الحساب والخائف يبحث عمن يحميه!

ثم تابع قيادة السيارة بارتباك ظاهر وهو مازال يتلفت وكأنه يلتقط بعينيه صور الأرصفة والشوارع! وبعد فترة صمت وجيزة ناح وباح مستدرجًا بتضرع أقرب إلى التوسل، بطريقة لا تخلو من مكر أو براعة، وبصوت يثير الرعب، منفر للغاية كمن تلقى للتو خبر وفاة عزيز على قلبه وهو يمسح بنظراته وجه الأرض وما عليها مسحًا:

- استرنا في الدنيا، ونجنا من عذاب الآخرة يا رب، اللهم أحسن ختامنا يا أرحم الراحمين! ها أنا قد قلت، عسى أن تنفع الذكرى!

وتابع منغصًا الجو الذي تشبع بكلماته الغريبة المرعبة بعد أن غادره الهدوء والصمت اللذان كان يختفي وراءهما، فتفتحت

أساريره للدعاء والهجاء وتحول فجأة إلى بشر من نوع آخر، وبنبرة صوت جديدة، بانت وكأنه يسعل بذل:

- يا لطيف، أشم رائحة الجنة وكأننا نبعد عنها أمتارًا قليلة! يا حفيظ... كفرة ودماؤهم مستباحة! سأجعل وسيلتهم الوحيدة في الدفاع عن أنفسهم، دموعهم فقط! ثم ختم جولته بلجوج وتهور: أغلق الله أبواب الجنة في وجوههم، وفتح أبواب جهنم لهم على مصراعيها... أمين يا رب العالمين.

وضحك برعونة دون سبب واضح، فتسكعت ضحكته، ماجت وهاجت ودارت داخل السيارة، فتدخل جميل وقطع عليه ضحكته المتسكعة ودعواته الملتهبة، كاظمًا غيظه بصعوبة، وهو يشعر بقشعريرة، بعد أن أفاق على نفسه، فأصبحت لهجته حازمة آمره:

- إنك تخيفنا بدعائك هذا، لقد أرعبتنا، ثم برنة صريحة لا تقبل التأويل: هل لكَ أن تفصح؟ أعني، ما وراءك؟!

قال نادبًا بنبرة مترجرجة:

- قل ما أمامك! على بركة الله يا أصيل يا ابن الأصول... وتابع ابن السفاح بصوت مقلق ومستثار أشبه بالاحتجاج: غيرة الدين وعار الجبين! اللهم نج المؤمنين شرور الشياطين!

زاده رده ابن المتمردة وجومًا وخوفًا، فركبهم الذعر حتى هاماتهم وكأن عفاريت الجن كلها فجأة قد لبستهم... وبدأت زمرته التي ترافقه تتهامس بعبارات متوجسة مخنوقة، فتشجع كاسرًا

طوق الارتباك والرهبة وسأله متمعنًا برغبة قوية مستبدة لفهم كلمات التحريض التي تمخر مترنمًا بها مذ قليل:

- دع عنك الأصالة وقل لنا ماذا تعني بقولك؟

بحمية أقرب إلى التضرع والدعاء، ورأسه يهتز ويميل شرقًا وغربًا بحزم، كعادة متأصلة به:

- سأحرص عليكم كبؤبؤي عينَيَّ، إن الله حق، انتظر يا صديقي وستعرف بنفسك كل شيء!!

دغدغ جميل تصميم حاقد جعله يجيبه منفرًا وهمس بصوت خفيض:

- خسف الله الأرض من تحتك، ثم رفع درجة صوته وأضاف: أعرف ماذا؟

ابتسم بحزن وقال بصوت مخذول وبطريقة فلسفية غامضة:

- بابا، أغصان الأشجار في الخريف تبدو وهي عارية كالأعلام الممزقة لجيش مهزوم! وتابع برنة سمعها جميل مجروحة: إذ يمكن للكلمات أن تشعل أضخم النيران وتفجر أكثر براكين الأرض خمولاً! ثم أنهى جولته بقوله: لابد من ثمة وهج، الصبر مفتاح الفرج، كما يقول إخواننا العرب!.

شعر المغلوب على أمره صاحبنا بحرارة المنازلة، فسعرت غرائزه خبثًا، وتاق لمجادلته نثرًا:

- عليك أن تجيد الصمت حتى لو كنت بارعًا في الكلام! وإذا كانت كلماتك لها طابع فلسفي قديم، عليك أن تعرف، الماضي هو المحرض لارتكاب الكثير من الحماقات في الحاضر! هل سمعت؟ وهو يركز على الجملة الأخيرة للتأكيد... الكثير من الحماقات في الحاضر!.

ثم عبر له عن غضبه الذي وخزه كوخز الإبرة في القلب:

- لكنني لم أعد أطيق الصبر، ولا نفسي، وما أريده هو أن نصل إلى فندقنا بسلام فقط، هل هذا كثير؟!

ابتسم لأول مرة منذ صعودهم معه، فانفرجت شفتاه ببلاهة ظهرتا متهدلتين وهو يفتح عينيه إلى أقصى مدى وهو يقول بطريقة أبعد عن التفاهم:

- طبعًا حبيبي كثير!! ماذا تتوقع؟

وتابع بانشراح غير حقيقي وهو يقطب حاجبيه كالشيطان الغاضب، وشارباه الجامدان المتصلبان القاسيان، كالمبرد الخشن لا يهتزان قيد شعره:

- سنصل، ادعُ الله وسنصل، بإذنه تعالى... ثم همس مستدركًا، مندفعًا: في الحقيقة، أعني... معذرةً، أنا في يومي الأول من عملي كسائق لسيارة أجرة!!

لم يعر لجملته أي أهمية، وتصوره يمزح معهم، أو يلاطفهم بجنون وفنون شرقية، سحرية فيها متعة ولذة، تغييرًا للجو أو دفعًا للتوتر، فعقب على كلامه برنة غير حازمة:

- يا رجل، قل كلامًا آخر...

ثم ضحك جميل وغيَّر موجة صوته، حيث رفعها قليلاً وبدأ يسامر الفريق الذي معه، وتحدثوا عن أشياء لا تخص الرحلة، وطال فيهم الأمد، وهم مازلوا جالسين بالسيارة، وكأنها المهد... تهزهم تدور بهم، تمررهم في شوارع وساحات وأرصفة وأشجار وأجواء غريبة لم يروها من قبل في دبي... والسائق ابن ضاربة الودع يمسك بمقود السيارة بقوة كأن الأخير يريد منه أن يطير، وعيناه شاخصتان، قلقتان وينز بدنه برائحة - لا حول ولا قوة إلا بالله- لا تطاق، تثير الأعصاب! مضى فيهم دهر وهم يدورون كثور الساقية، ولم يعرفوا وقتها أين هم أو حتى إن كانوا أصلاً في دبي!! فسأله جميل بلهجة أكثر حرصًا عن ذي قبل:

- تُرى أين الفندق؟ أقصد، أين نحن الآن؟ هل لكَ أن تخبرنا؟

ثم تابع بانفعال بعد أن تذكر أنهم حينما ذهبوا إلى الساحل لم يستغرق الوقت أكثر من اثنتي عشرة دقيقة، وبالتالي فالرجوع يجب أن يكون كذلك، وما أن توصل إلى هذه النتيجة الخطيرة، حتى سأله بصرامة:

- هل تعرف إلى أين نحن ذاهبون؟!

بإيقاع واندفاع:

- لا!!

ببرود قاضمًا في قلبه الغضب واللهب، والكلمات تخرج من بين أسنانه:

- ولماذا تستمر في القيادة وأنت لا تعرف إن كنا في دبي الآن أم في الشارقة؟!

- يا رحمة الله... بابا العلم عنده، علام الغيوب، ألا تعلم ذلك؟ كيف هذا؟ سبحان الله في خلق الله!

ثم أخذ نفسًا عميقًا وكأن قضية مهمة تشغله، والعرق يتصبب من وجهه المحروق فزاده توترًا وارتباكًا والروائح التي كانت تنفذ من بدنه أصبحت فجأة قاتلة لا يمكن الصبر أو السكوت عليها...

- قذف الله بجثتك من حافة جهنم دون ندم.

ثم بحزم كأنه يريد أن يسيطر على توتره والجو المشحون بالقهر والريبة:

- هل أنت مجنون يا هذا؟

- منْ أنا!!

رد عليه جميل مستهجنًا، حانقًا:

- يا الله... ما هذه الشرور التي تلبسها؟ أسرى الله في بدنك رعشة الخوف قبل الموت، ثم أجابه مقتضبًا: ومن غيرك أتكلم معه؟

وصرخ به بهوس بعد أن أفقده ابن المدللة أعصابه: إما أن تقول لي أين نحن الآن؟ أو تتوقف!!

بغباء لا يمتلكه حمار أعرج:

- لقد قلت لكم، علينا تصحيح الأوضاع قبل الضياع ولم تصدقوني!

بلهجة حاقدة ثغا:

- يا حفيد إبليس، لوى الله عنقك كما تلوى الحبال ثم يقطع رأسك كما تقطع قطعة الجبن عند الإفطار، أي أوضاع وأي ضياع تتحدث عنه؟ نحن نريدك أن تقلنا إلى فندقنا، ولا شيء غير ذلك!

رد هادلاً:

- وأنا أريد ذلك أيضًا، عجبًا!

بجهل وبجنون:

- وما المانع إذن؟

بجدية زائدة:

- لقد قلتم لكم ولم تصدقوني!!

- نصدق ماذا؟

- إنه اليوم الأول في عملي كسائق لسيارة أجرة!!

ثم سكت وهو يجر ويعر بمقود السيارة وكأنه خصمه اللدود!

- لكننا هنا مجرد سياح، ومسألة الطريق لا تهمنا كثيرًا، ومن ثم لماذا نستقل سيارات الأجرة؟ أليس لتوصيلنا إلى حيث ما نريد دون أن نجهد أنفسنا أو نكون على معرفة بالطريق؟.

- بالتأكيد يا عمنا، لكنني الآن في ورطة، فأنا لا أعرف بالضبط أين نحن! بل لا أعرف كيف أرجعكم من حيثما نقلتكم!!

زمجر به بشراسة هادرًا:

- توقف! ثم كرر الكلمة بصوت انفجر في السيارة كالقنبلة: قلت لكَ، توقف...

ترجلوا من السيارة والسائق ينظر إليهم بعينين منكسرتين وزمرة جميل تنصح الأخير بأن يعطيه قليلاً من المال لقاء وقته وجهده...

لكن جميل كان مصرًا على أن لا يدفع له شيئًا حتى لو اضطر بإتيان الشرطة لاستجواب هذا المعتوه الذي يطلب من السياح أن يوصفوا له طريق هدفهم أو أن يدلوه عليه! وبدلاً من يدفعوا ستة عشرة درهمًا كما للساحل حينما ذهبوا، دفعوا مائة وسبعين درهما لقاء عودتهم، لأنهم فيما بعد عرفوا... كانوا يدورون حول نقطة قريبة من إمارة رأس الخيمة! قصف الله رقبته، المنحوس ابن التائهة، تلك التي لم يسر أحدًا وراءها ساعة مماتها، لأنها أنجبت هذا الأصيل ابن الأصول كما كان بالجملة يتغنى يقول ويصول، الذي كلفهم المال والأعصاب!!

هيول ابن نبي الله

وصلت إلى مسمعي عدة طرقات متوالية على باب منزلنا، وكأن الطارق هارب مطلوب أو مطارد؛ أو لأمر مهم مستعجل قادم... كان الوقت أثناء غروب الشمس وقبل حلول الظلام؛ كنت جالسًا مع همومي وحولي هموم أبناء جيلي أبحث فيها، أقلبها، أفسرها، أشرحها لعلي لها حلولاً أوجدها، حتى سمعت تلك الطرقات المرتجفة المستمرة والممزوجة مع أنفاس الطارق اللاهثة المتسارعة...

قمت من مكاني بعد أن جرحت تلك الأصوات سكون المساء وهدوئه، فتحت الباب برغبة محمومة مستفزة لمعرفة من الذي يقف خلف هذا الباب ولهاثه يسبق صوته، فجأة بدا لي المجاز أمام ناظري وكأنه دهليز أحد معابد بابل القديمة، المعبأ بالسر والسحر، وصورة ملأت مخيلتي لاستكمال الطقوس الروحية والتاريخية كي يتهلل من خلالها ما تبقى من حياتنا الطافحة فوق بحيرة العذاب اللا منتهي كضباب سرمدي فضي بلا أبعاد كما في صحراء البتراء، ثم رأيت العجب، بذهول محسود، منهك،

مختال كحشرجة الروح وهي تحتضر، كصليل الجرح الذي لم يندثر، وسعير السر المحبوس في النفس وهو يجلجل...

شاب له وجه أشد روعة من كل الأحلام، تغرد فيه أجمل عينين، غارقتان بالفرح ومكبلتان بعطر الجنة؛ في مرحلة النضوج، لا يتجاوز العشرين ولا يقل عن الثامنة عشر، يرتدي ثيابًا لم أرها أو أقرأ عنها من قبل، إلا في الروايات التاريخية القديمة أو في الأفلام التي تجسد مرحلة ما قبل ألفي عام في أقل تقدير...

لقد كان الشاب قويًا، وكأنه جُبِلَ من المرمر، مفتول العضلات، عريض الكتفين، طويل الشعر والقامة، له عينين نقيتين كعيني الديك، بجبين صافي كقطرة الندى، نظيف الثياب رغم غرابتها بالنسبة لي، بيضاء كلون ريش النورس، له لحية وشاربان مشذبان بدقة نحات، رقيقين لم تنبتان بكثافة في وجهه بعد، يميلان إلى الإحمرار قليلاً، بسحنة ناصعة البياض كثيابه... وما أن رآني حتى همس بخجل ممزوج بالوقار، كحمام معابد السلام، بعناية ورعاية دون مقدمات:

- أنا هيول ابن يوحنا المعمدان.

ثم سكت وكأنه يريد أن يعرف وقع كلامه وتأثيره عليَّ.

بصوت مرتبك:

- منْ؟

وأنا أدقق النظر فيه بحذر وكأنني أراه من خلال قنديل وفتيل، فبان لي رغم ذلك كطيف، حتى أوحى لي المنظر أن يكون جديرًا للرسم أو ملهمًا للشعر!

- هيول ابن نبيك، ثم أردف برقة: أقصد، الابن البكر ليوحنا المعمدان.

خرج صوته من أعماق صدره وكأنه يصلي في محراب، وهو ينظر لي من فوق إلى أسفل وكأنه يقيسني، بذهول وبطريقة أقرب إلى الاستغراب والوجوم:

- ماذا تعني؟

- أعني ماذا؟

أجاب والرحمة تنسكب من ثنايا كلماته وهو يحدق بي ومازال واقفًا على الباب بهيبة وهيئة ملائكية. بسرعة كمن كوته النار:

- أسألك إن كان هذا هو اسمك الحقيقي، أم تمثل دور الناسك؟

كرر قوله برصانة أقرب إلى الابتهال:

- أنا هيول الابن الأكبر لنبي الله "يحيى بن زكريا" جئتك قاصدًا ومصممًا...

تجمدت أطرافي، شعرت بالعري كشجرة سلبها الخريف أوراقها، ركبني الهلع ولبسني الذهول مما أرى وأسمع، حتى شعرت أنني في حلم سحيق الهوة، عميق الأغوار، بعيد المدى، عظيم الأهوال!

وأنا أهمس في نفسي بجنون محرج وبشعور أشبه بالخجل، وبحيرة أقرب إلى الاستحالة: "ما الذي يحدث في الدنيا؟ من أنا كي يطلب مني هيول ابن نبي الله مقابلتي والسعي للحديث معي؟!"، وفي غمرة سكري وسرحاني، وربما أحسَّ ارتباكي، قلقي واستغرابي، خاطبني برنة وادعة مستكينة، ينسكب منها العطف أنهارًا:

- دعني أدخل دارك، وسأشرح لك ما يجول في بالك، وأعلم، بأنني قصدتك أنت دون سواك!

زادني رده توترًا واستغرابًا وأنا أردد على مسامعي المثل الدارج الذي يقول "العبد بالتدبير والله بالتقدير"، ثم غمرتني حيرة غريبة استبدت بي لم أستطع مقاومتها، تغلغلت في أعماقي، انغرست في عظامي حتى استولت على كل كياني؛ ثم في لحظة عجيبة، وجدت نفسي قادرًا على تفهمه والموقف، شعرت بأن دمائي تفور في عروقي، وعقلي يتقد كجمرة ملتهبة، وبقوة غير عادية تجتاح جسدي النحيل، فجعلته متوثبًا دون إرادة مني! أجبته معتدلاً بوقفتي، مرحبًا به وكأنني أعرفه منذ الطفولة...

أدخلته بيتي الذي شعرت في وقت ما أثناء جلستي معه، يتنفس – البيت- هو الآخر عبق رائحة ضيفي، ويشم فيه ما أشمه أنا من عطر وشيئًا لا يمكن لي وصفه، لأنني لم أره، لكنني أحسسته؛ شيئًا يشبه الإلهام أو الرؤى أو الروح أو أقرب إلى الوحي، هو

الذي يسيطر ويحوم وينتقل بين أرجاء البيت وينشر ذلك الشذى السحري العبق الذي لا أستطيع وصفه - كما قلت- فيه من الهدوء والسكينة ما يستطيع أن يملأ تجاويف الكون بأسره، سبحان الله...

هممت بعد أن وجدت الصمت هو الذي يقف فوقنا، فكسرته سائلاً في محاولة لمحاربة السكوت:

- كيف لي أن أساعدك؟

ثم عدَّلت من صيغة سؤالي التي وجدتها لا تلائم عظمة وقدر ضيفي:

- كلي آذان صاغية، سل عما جئت من أجله، وأنا سأجيبك بما أعرفه...

ابتسم بعذوبة، حرك حاجبيه وقال بنبرة أشبه بدوي الشلال وبصوت مثقل بالأحزان:

- يقال في الأمثال "إن الشاة لا يهمها السلخ بعد الذبح"، وأنا لا أريد أن تصل بنا الأمور كما وصفها المثل، لقد اطلعت على مقالك الأخير الذي يتعلق بمشاكل جيل الهجرة الثاني والثالث من أحفادنا، سويداء قلوبنا وفلذاتها، التي لا تنبض إلا من أجلهم؛ وغمرتني الحيرة، عصرني الألم وأنا أتابع عن كثب ما آلت إليه أوضاع أحفادنا من بعدنا، لذلك جئتك دون سواك...

- كيف عرفت ذلك؟ أعني كيف اطلعت على المقال؟!

بود شعرت أنه نبع من عينيه اللائي تشبه عيني أبيه تمامًا في تقوسهما، كبرهما، صرامتهما التي تعبران عن قوة شخصيته وإلهامه، فخرج صوته مسالمًا إلى أبعد الحدود:

- كما قال لك أبي يوم قابلته "نحن معكم ومن أجلكم نكون، نمضي، نتفانى، نسير ونسعى حتى أبد الآبدين".

- بماذا تأمرني؟

(قلت له ذلك بطريقة أقرب إلى حدود الصدمة).

بحزم يشبه اللوم:

- أن تقول لي السبب الذي دعاك لكتابة ذلك المقال الذي هز وجداننا، الذي تصف فيه مستقبل أجيالنا ببعد نظر راق، وبتفسير وشرح وجدته قريبًا من الواقع...

أجبته بحماس وحرقة وكأنني أريد أن أحكي وأبكي:

- هو نفس السبب الذي جعلكم تأتون، ولقائي تسعون.

ثم عقبت مفرقعًا، مقرقرًا كالخشب عندما يبدأ بالاشتعال متابعًا:

- يقول المثل عندنا "لنتحزم لابن آوى بحزام الأسد"، المشكلة الحقيقية التي تواجه أجيالنا هي اللغة، تنوعها واختلافها، فالشاب الذي يريد الارتباط بفتاة لا يستطيع الارتباط بها وهي لا تفهم لغته، لأنها تقطن بلدًا آخر وله لغة مغايرة لما يعرفها هو، والحال كذلك للفتاة، لذلك سيكون مع الوقت ملزمًا لهؤلاء من الارتباط

فقط ممن يقطنون البقعة التي يسكنوها، وهنا تكمن الصعوبة، كما أن النسيان وغياب لغة الأم من ذاكرة وذهن الجيل الثاني والثالث في بلاد المهجر... ناهيك عن اختلاف طبائعهم، صفاتهم، ميولهم، توجهاتهم وحتى أذواقهم بالمقارنة مع آبائهم وأجدادهم، وبانكسار مفضوح قلت منهيًا كلامي: كما تسمع، مشاكل جوهرية معقدة جدًا لا يمكن حلها بسهولة أو سرعة؛ وإذا استطعت أن أكتب اليوم مقالاً، فبعد ثلاثة عقود لا يوجد من يكتب لهم، وهم لا يستطيعون قراءة ما ينشر أو إليه يصلون.

ثم عرجت منوهًا بتعريض ولوعة:

- خوفي أن يأتي عليهم اليوم الذي يعجنون فيه الطين وكأنه الطحين!

هدل بعذوبة:

- نحن لا نشك في مصداقيتك أبدًا، لأنك سبق وأن قابلت أبي وسمعت منه كما سمع منك، عندما التقيته على ضفاف نهر الأردن وهو يعمد التائبين وينظف قلوب الحاسدين من الضغينة والحسد؛ أنا أسألك إن كانت هناك حلول تجدها سهلة التطبيع ومن شأنها تقود إلى التطبيق؟ بحكم قربكم من حياة واحتياجات ومشاكل جيلكم وأبنائهم.

دموعي سبقت كلامي وأنا أهم بالرد:

ـ لم أفكر بذلك، أقصد، ما أردته هو أن أثير الموضوع كي يكون في متناول أيدي أصحاب القرار، هذا أولاً، والأمر الآخر أن نراعي بحرص شديد ما يمكن أن يفعله أو يثيره مثل هذا الموضوع في أوساط مغلقة كأوساطنا، كما تعلم إننا أمة سارت منذ المهد على طريق واحد لم نسر غيره، بل لا نعرف سواه، فأي تغيير يعتبر للكثيرين ربما بدعة، وكل بدعة من أصل الشيطان، والشيطان مصيره النار!!

بلهجة ظفر، تحمل دلالة واضحة، وبغبطة لم أتوقع ولادتها في لحظات كهذه، قال وهو يغالب دموعه بوجد:

ـ أنا سعيد جدًا أن أسمع منك مثل هذا الكلام.

ثم تريث قليلاً ودون تكلف أضاف مترنمًا، متابعًا بصوت حاسم، له قوة البرق وهيبته وبتقوى أقرب إلى الورع:

ـ إذن اسمع ما سأقوله لكَ جيدًا وما عليك إلا أن تنشره على الملأ، بالنيابة عني لأنني لا أستطيع مقابلة الجميع أو مخاطبتهم؛ لا تجهدوا أنفسكم بالنفخ في الرماد البارد من أجل أن يصحو أو يفيق، فلا يحك جلدكم مثل أظافركم كما يقال في السابق، اعتمدوا على أنفسكم ترزقون؛ تجَّمعوا في مكان واحد سيكون فيه سر بقائكم ومن ثم خلودكم، ومما جعل المندائية تستمر رغم كل الصعاب والأهوال التي جابهت مسيرتها الطويلة عبر التاريخ... هي أنها عاشت في بقعتين قريبتين من بعض ـ العراق وإيران ـ

لكن تشتتها وانتشارها غير المدروس وغير المنظم هي أساس المشكلة وصلبها؛ أخذ نفسًا عميقًا ثم تابع بانفعال وجدته أقرب إلى التحدي، لذا سأعيد عليك ما قاله لك أبي من قبل، يوم رأيته: عليكم بلم الشمل، والتجمع في بقعة واحدة من الأرض، ليتم بعدها التداول فيما بينكم والتعارف والتقارب ومن ثم تمهيد الطرق للتزاوج الذي يوصل الأرحام فيما بينكم ويجعلكم تفرحون وعلى الأرض سعداء تعيشون وتحيون، ونحن لا نقلق ولا نحزن ونكون ساعتها عليكم من الراضين.

ثم بعد وقفة تابع وهالة من النور منه انبثقت وتوهجت فجأة، حتى شعرت بأنه أصبح أخف من الريشة وأقوى من الصخر على التحمل، سبحان الخالق، كيف يجمع بين النقيضين في آن وذلك في إنسان؟ تغير صوته، وبنبرة صريحة محددة سألني مباغتًا:

- يا أخي الطيب، أرى في عينيك كلامًا تريد أن تقوله، فمن مثلي يعرف الأسرار وما في قلوب الناس من أخبار!

لفراسته ونباهته... شهقت دون إرادة مجددًا بالدموع التي فاضت رغمًا عني، فأجبته بخشوع كاد يصل حدود الالتماس:

- لله درك يا بن نبي الله، إنك على حق وما قلته لم يكن إلا اليقين، في داخلي عبرة، وفي خلدي تسكن الآهة، وأنا أرى أبناء جلدتي تائهين وكأنهم في لجة البحر، كالغرقى الضائعين...

- أرجوك، قل لي ما وراءك ولا تجعلني أقلق عليكم أكثر مما أسمعه وأراه!!

بخجل كاد يصل حدود همس النبض:

- الحقيقة، كثرت هذه الأيام على مسامعي انبثاق هيئات ومنظمات ومؤسسات... أصبحت من كثرتها لا نعرف أسمائها، ولا حتى توجهها أو فصلها من أصلها، ولا نعرف بالضبط إن كانت تلك المنظمات تريد أن ترشدنا، تحكي لنا، تضحك أو تبكي علينا؟! وكذلك لا نعلم إن كانوا يأتون ليبذرون الوفاق وتحمل المشاق أم لينشروا فينا بؤس الشقاق؟! ويذروها في الوجوه والأحداق! خاصة وأنهم لا يعرفون العمل إلا بضجيج لا يطاق من (النقيق والزعيق) فهم بذلك أما أن يريدوا أن يشفوننا أو يقضون علينا؟! والمصيبة هي أنهم يفعلون كل ذلك بوقار لا يعود إليهم، ولا يليق بهم، وهم لا يشعرون!

ثم غيرت من نبرة صوتي وبلهجة زلقة وزلفة تابعت بهوس كالمحموم، وكأنني قد فقدت عقلي فجأة بعد أن انتفض داخلي همًا:

- نحن قوم نحب العيش في الماضي كثيرًا، ولا نريد أن نستيقظ منه أبدًا، ذلك الذي كان يحمل في تاريخه وطياته أكبر وأعظم الحضارات في العالم، لكن الماضي ذهبَ ولن يعود، والزمن يتغير ولا يبقى على حاله، لكننا لا نريد أن نتعلم، وكما قال

المؤرخ العراقي عبد الرزاق الحسني "الحاضر هو العقل والماضي هو التاريخ"، ولا يمكن إدراك سوى مواعظه وتجاربه لعلنا منها نستفيد؛ لذلك نرى الشرقيين حالمين وحالهم كحال السكارى، لا يعرفون إن كانوا أحياء أو من عداد الموتى؛ وهؤلاء غالبًا ما تكون ذاكرتهم معطلة، لم تعد تعمل أو لا وجود لها، وصرنا كما يقال: أثرًا بعد عين! حيث غالبًا ما يتوهمون أن أفعالهم تصل حد الخلق والإعجاز! وقد تناسوا أن الماضي لا يقدر أكثر من إعانتنا على فهم اليوم والغد ليس إلا، لكنه لا يمكن أن يعوضنا عن الحاضر والمستقبل.

ثم بصرخة ندت مني كطلقة المغص القاتلة:

- متى نفهم ذلك؟! ونحن نراهم لا يتعبون ولا يشبعون، وربما أيضًا على أفعالهم تلك لا يندمون! حتى بتنا نخاف الأخبار وندمن على الانتظار، رغم بياناتهم التي تتصف بالحذر والوقار، غير المفهومة، تلك التي تشبه كما يقال صوف بشوك! يبيعون ويشترون على هواهم، وبأسنانهم الذهبية يقطعون، وكأننا سبايا حرب أو عبيد درب أو شيئًا من هذا الضرب! كيف هذا، هل ترضى يا رب؟! يأتون إلينا كالسنونو برشاقته، كبراءة الموتى، كالأقدام الحافية التي يخجل منها كبرياؤنا الزائف نحو الأشياء الوهمية، في عيونهم نرى عواء الثعالب، وفي أيديهم خيوط العناكب، ينشرون ابتساماتهم الزائفة المنتصرة كالعرق المنسكب من وجه الهارب! يزحفون إلينا في أنصاف الليالي، وسط العتمة

والليل يستحم بعطر البرتقال، كأنهم جنود الله أو كهنة معابد السلام، ما هذا، ألا يستحون؟ كيف يأتون؟ وبأي وقاحة يتكلمون؟ ومن منظرهم ألا يخجلون؟! إنهم أحدًا لا يشبهون، لأنهم من رخام جهنم جبلوا... يا للعار، لقد باتت تجاعيد وجوهنا سواقي لدموعنا، وصرنا كرموز النحس، كسجناء الفكر في دوامة النسيان، خارج حدود الزمان في زنزانة السلطان، قائد الأركان وحامي الأوطان...

لم يجعلني أكمل، بعد أن رآني أهذي كالمحموم، قاطعني بطريقة مازجها الغيظ متجهمًا، مهمومًا والألم يعتصر قلبه، فرنَّ صوته في أرجاء البيت بثقة وعمق وثقل، وكأننا في واد عميق:

- في زمننا الذي جئت منه، يُعرف المرء من مروئته، فعله، تاريخه، أخلاقه وموقفه، لكنني أحزن على واقعكم المؤلم القاسي هذا، وأصبح المرء في زمنكم يتشوف، يتظاهر ويتباهى بأمور زائلة لا تنطوي على حكمة أو اتزان، كأن يغتر بماله أو بطول مسبحته أو بالخواتم الذهبية والفضية التي تقيد أصابعه...

ثم عدل من جلسته وظهر وكأنه طيف مضيء، خفض بصره نحو الأرض، وظل صامتًا وطال صمته، حتى هبَّ واقفًا بعد أن أفاق دون أن ينظر إلى شيء محدد، فشعرت برهبة تدك بدني وبرعشة تمتلك جسدي وهو يردد:

- أرجوكم، لا تنخدعوا بالمظاهر البراقة ولا بالأصوات الرنانة، فليس كل ما يتوهج تحت أشعة الشمس ذهبًا، وأن لا تنطلي عليكم كلمات وأصوات البراءة والطهارة المزوقة المنمقة، فلا يوجد في أيامكم هذه وفي زمنكم هذا أكثر منها، تلك التي أراها واضحة كالبدر في تمامه في ليلة ظلماء... عوا لما حولكم، وتقربوا من كتابكم المقدس، فهو الطريق والتقويم، ولا يغركم كلام الطلاء فهو كدجل الرياء، مطلي بماء الأوهام والدهاء، ولا تذهبوا هكذا وراءهم وكأنكم نيام، وأنا سأدعو لهؤلاء بالصبر وزيادة التقوى والغفران، لعلهم على الهداة عيونهم يومًا تنام؟! واعلموا أن أفعالهم تلك فقاعة في فنجان، وعندما تنفجر لا تُحدث أي ضجيج، وستمر مرور الأحلام في المنام؛ فلا تحزنوا ولا تشعروا بالغبن أو الجبن، فبأفعالهم تلك يظهرون وكأنهم ملائكة جهنم يوقدون في طريقكم مصباحًا ضريرًا، ويتركون قلمكم كسيرًا، وطاولتكم التعبة، المتهالكة التي لا تقوى إلا على الأنين، كسور أكلته الرطوبة والحنين، يمزقون ويحرقون عباءة الفضيلة التي عليكم وكأنها داء خطير، لتبقوا كرجل مسجى لا يعرف إن كان نائمًا أو ميتًا في عمق السرير، في زمن ضائع، من متاهات الغربة، مخذول فقير، ويفرحون للهاثكم المخنوق الذي يشبه الصفير...

ثم أضاف بوهن لا يخلوا من انفعال ولذة روحية:

- ولكن عليكم أن تتفاءلوا، ومن يضع في حياته غاية يستطيع أن يأتي بالمعجزة، هذا ما كان أبي دائمًا يقوله ويردده، وتذكروا أن المصيبة التي لا تكسر تُقوي!

وما أن أنهى جملته الأخيرة حتى وعيت على نفسي، فوجدتها حبيسة الوحدة، ملازمة الصراع، دفعًا للضياع من أجل البقاء وأنا أدون الملاحظات والأفكار التي لا حصر لها بجلستي التي كانت مع همومي وهموم جيلي التي أقلقتني وجعلتني أستنجد بمن أذوب وأحب وأصدق... وهل هناك أروع وأعظم من أن يلتقي المرء بابن نبي الله البكر في لحظة ضنك قاسية ومريرة؟! ثم وأنا ألملم أوراقي وأطويها، قلت أخاطب نفسي هامسًا بوجد لا حدود له:

"ترى هل نجلس العمر كله ننتظر ونحاول أن نعرف ما يخفيه قلب وعقل الكائن الشرقي من عجائب، وأمور غريبة لا يعلم بها ربما حتى أحسن المنجمين؟! إنها ضريبة القدر والتي يسمونها المتقولون: ما بين عظمة العبقرية وهبل الجنون، متى تغسل قلوبنا من الهموم؟ متى تنقشع من رؤوسنا أطماعنا، أفكارنا وسوداء الغيوم؟ حتى الحديد يتغير عندما يكون بين السندان والمطرقة إلا نحن، نعم، إلا نحن، وكأننا في رحاب القفر والضباع، بين رحى العقم والسقم وفضاء الضياع، كتربة هشة تخشى من ضربات الرياح، كالموتى، كالصرعى، نرفس الأرض ألمًا ونتحرك كلهب الشموع دون عواطف أو دموع،

نأكل، نشرب وننام بمعجزة! وكأننا نريد أن نبني دارًا أو حيًا أو زقاقًا من العصب والجلد ودم الرفاق، صلاتهم باطلة وحق الدين والقيم والأخلاق...".

قمت وأطفأت النور ورحت في نوم عميق ليس له قرار، في متاهات الغربة دون أمل أو وطن أو حتى في الأفق طيف لديار.

رقيب الإنسانية

كان نديم مهذبًا نشطًا ويحب الجميع، وعن المبادئ الخلاقة مدافعًا؛ التي لم تعتمد إلا من أجل رقي الإنسان ونجاحه، وجعله بمصاف الملائكة التي تعيش خارج محيطه المزدحم بالتفاهات... لكنه تغير!!

بعد أن وجد نفسه يعيش الهزيمة تلو الأخرى...

اهتز داخله باضطرابات الفشل الذاتي...

ولم يجد ما كان يصبو إليه ويحلم به...

فبدأت ثورته الداخلية تغلي، ثم تقذف بحممها البركانية بوجه أهله أولاً، وأصدقائه ومعارفه والمقربين ثانيًا.

بات لا يرغب في النوم، ولا يستسلم إليه، إلا بعد أن يرى أقرب الناس إليه محطمًا، خائرًا، مثله فاشلاً!!

الجوهرة المفقودة

أبغض أيام الدجاجة، يوم أرجلها يغسلون

وصلت حنين وهي تلهث بمشاعر فياضة، حالمة والدنيا لا تسعها ولا تجد موضعًا لقدمها من فرحتها وغبطتها.

انحدرت حنين من أصول عراقية عريقة، لها جذور مغروزة بالِقدم كعمر الزمن، وتاريخ أسرتها يُحكى عنه للأجيال كالأمثال ترفع من شأن القدرة والقدوة وتشحذ الهمم؛ كونهم لا يطلبون إلا السلام والأمان، ويؤمنون بالرب الواحد الغفار، صاحب الجلال. الابتسامة لم تكن تفارق وجهها الملائكي الجميل، متسامحة في حياتها إلى درجة الإفراط، وقلبها أبيض من الحليب، عيناها تؤكدان كلامها، تنبذ الفوضى وتركن للهدوء في إلهام ولا تعرف أن تعيش إلا في أجواء من السلام، كالسمك في الماء.

نبيهة، فطنة، ذكية وتتلقف الأشياء بهمسة أو نظرة كساحر يريد إدهاش جمهوره. كانت الأنثى الوحيدة من بين سبعة ذكور؛ رحل أبوها وهي في السابعة من العمر، فترك لزوجته حِملاً لا يقدر جمل على حمله، لكنها صمدت، تحملت وأظهرت تفوقها بين

أبنائها في نشر الحب والسلام دون تفرقة، فتخرج منهم من تخرج، ليعملوا في مراكز مهمة وكبيرة في الدولة، ومنهم من تأخر في دراسته، لكنه لقي ضالته في مهنة ورثوها عن أجدادهم وأبيهم - صياغة الحلي من الذهب والفضة- تلك التي لا تدرس في بلاد العرب؛ فنجحوا فيها أيما نجاح، وجمعوا المال وأصبحوا من أصحاب الجاه والثراء... وأمهم تنظر إليهم فرحة، متفائلة، فخورة بهم وبما صنعت أيديها من صنيع...

بعد أن تزوجت حنين وهاجرت مع زوجها إلى بلاد الغربة، تلك التي لم تجد ضالتها، طموحها أو حتى أملها في الحياة كما كانت قبل الزواج... فعاشت الظمأ، عرفت الفراغ، جربت الهروب والانزواء، ونامت مع الحرمان وهي تحتضن ذكرياتها وتحن إلى ماضيها البعيد القريب لعلها تجد شعاعًا يضيء طريقها أو عن حزنها يسليها، ولم تجد غير الكآبة والفرقة والركض وراء ماديات الدنيا التي تنبذها.

انزوت في ركن مظلم، بارد وحيد من أركان الغربة وهي تشعر بأن حياتها ستنتهي على هذا الحال، ففاتحت زوجها تطلب منه السماح بزيارتهم... وها هي الساعة تصل، والفرحة والسعادة تملئها حتى نخاع عظامها. دخلت وداخلها يتفجر نشوة في الروح والجسد...

تفاجأت...

انبهرت مذعورة مما رأت وهي تشعر أنها مرتبكة وعاجزة عن التصرف أو التصديق...

رجعت إلى الوراء بقلق رهيب حتى اصطدمت بإحدى الأبواب شبه المخلوعة، ثم تجرأت فتقدمت نحو الغرف التي تعرف طريقها جيدًا بخطى مجنونة، فوجدتها خاوية متروكة!! فزعت فجأة عندما قفزت قطة كبيرة كقطة قصاب، من فوق رأسها... رفعت صورة وجدتها على الأرض مكسورة، فعرفتها، لأنها هنا من أجلها، التفتت إلى الجدران المتآكلة مصعوقة، فرأتها متشققة وطلاؤها الذي كان براقًا في الأمس القريب تحول إلى لون أكثر سواد من الفحم! حاولت الهروب أو الخروج، سقطت متعثرة ببقايا أشياء كانت متناثرة، صرخت، بكت ولم يسمع أحد نحيبها...

ظلت تبحث بخوف ممزوج بالاشمئزاز وتفتش لعلها تجد ما أتت من أجله، وتكلفت لرؤيته... لكنها وسط محنتها بانفعال كلمت نفسها وهي تحملها مقدارًا كبيرًا من الحزم:

"يا ليتني لم آتِ! ما هذا الحطام؟ ما هذه الأكوام؟ أين أجد ما أبحث عنه؟".

بشجون وخشوع، وبصوت موجوع دعت: "يا إلهي... ساعدني كي أعثر على جوهرتي التي تركتها هنا قبل رحيلي ومن أجلها أتيت، والمشقة تحملت وعانيت...".

آه... لو تعرفون كيف كان حال حنين وهي في لجة الهم والسخط والحرمان، وهي تبحث تحت الأنقاض، كطفلة تبحث عن دميتها حين استفاقت فجأة في منتصف الليل ولم تجدها كما وضعتها قبل نومها في حضنها، ففزعت مرعوبة والعرق يغسلها كمياه شلال. غلبتها الحيرة، صرعتها المشاهد وأبكتها الصور التي كانت تنفخ فيها بكل قوتها، تقلبها، تقبلها وتسألها، تغني لها، تمسحها... علَّ عنها غبارها تخفيه... لكن محاولاتها كلها بالفشل باءت، كمن يطلب من ميت أن ينبض، ومن الكسيح أن يركض، ومن الغريق أن يعوم.

استراحت لحظة، اتكأت على حافة سلم البيت الذي لم يبقَ منه سوى بعض السلالم المتهالكة التي لا تقوى على الصمود إذا ارتقاه أحدهم؛ مكسورة الخاطر، مبللة العينين، بعبوس وحسرة ناحت مدمدمة:

- كل شيء مدمر، محطم كأرض لم تفلح جيدًا، فبقيت مبعثرة، خربة، وكأن شهابًا أصابها فقلب عاليها سافلها أو لعنة حلت بها فحولتها إلى شيء يشبه الجحيم بعد أن انطفأت ناره.

ثم أردفت برنة مخنوقة:

- جبر الله بخاطركم يا أهلي! أين البخور وعطر الزهور؟! بل، أين جنة حديقتنا، بسمة وتغريد طيورنا؟!

ثم تغير صوتها، فظهر كصوت قطة محاصرة وهي تضيف بهمس مخيف:

- أين جلسات السمر الدائرية قرب الموقد المتقد؟ أين حكايات الليل السرمدية التي كنا ننام على وقعها؟ وأصوات أكواب الشاي التي تصب وتدور، وعطر الهيل الذي منها يفوح، وترنيمات أخواتي السبعة، وحضن أمي الدافئ!!

وهي تئن، رطبت خدها دمعة كبيرة، بحجم حبة مطر في منطقة ساحلية، ونادت:

- آه يا ربِ... أين هذا كله؟ أين العواطف المتأججة، المتوجة والمشحونة بالعطف والحب والخوف على الآخر؟ ماذا جنينا كي نعاقب بصاعين؟! عندما غادرنا وتغربنا، فجدبت أرضنا ونضب عطف سمائنا حينًا وحينًا، عندما نرى أهلنا وقد تقطعت بهم سُبل المحبة ليبدوا وكأنهم أعداء، ليس لهم من هم سوى الاعتداء!! هل هذا هو بيتنا؟ أين الحب الذي إليه حنيت؟ ومشقة السفر والطريق عانيت! أين التسامح والرأفة والأخوة التي كانت في الأمس القريب غطائي وسقفي ويدي به يومًا حنيت؟ ما هذا الذي أراه؟!

فجأة، اختفت ابتسامتها التي كانت عنوان وجهها منذ يوم قريب؛ تبدلت ملامحها، فظهرت قاسية كالصخر، كالحة كأحجار الجرف...

تنظر إليهم وهي تبحث عنهم وكأنها لا تراهم، بعينين مندهشتين، مذعورتين، وهي ما انقطعت عن الترديد بلهجة أقرب إلى الهذيان:

- أين هي الألفة، تلك التي تعودتها وتنفست هواءها قبل رحيلي؟

تمثل لها المنظر فجأة القبر الذي ستدفن فيه! ثم تأتأت بحشرجة كلام خرج متقطعًا، غير مفهوم:

- كل ما ينزل من السماء، تتلقفه الأرض!

لم تسمع إلا صدى كلماتها المهزوزة، المخنوقة ولهاث أنفاسها، وكأنها إلى الله تتضرع... لم تلمس الحنين، ذلك الذي تحجر في قلوبهم وتحول إلى شيء كالهوس، كالجشع المخلوط بعجين الطين! لم تجد الحب الذي كان يغرد في بيتها، بل لم تجد فيه أصلاً أمها... لأنها كانت في إحدى بيوت المسنين تنتظر بجزع رحيلها!.

عتـاب الأحبـة

خرج جمال من متجره الذي يحمل اسمه فجأة كذكر الغزال، وكأن حريقًا خلفه يلاحقه؛ وقف على ناصية الشارع وهو يردد صارخًا بصوته المميز المبحوح المخنوق الذي يشبه لهاث وصفير الشخير:

- توقف يا هيثم!!

ثم كرر نداءه وبصوت أعلى معترضًا بطريقة شكلت شبه احتجاج:

- ألا تسمعني؟ توقف أرجوك...

يطل متجر جمال على ناصية شارع الشمس العريض والمعروف في مدينة ميونخ، حيث يشق الشارع المدينة إلى نصفين، وعلى جانبيه تنعم أفضل وأشهر وأقدم معاهد تعليم اللغة، كمعهد جوته ولينكَوا، ناهيك عن دور السينما والمراقص وبعض مطاعم الخدمة السريعة ومتاجر مختلفة الأغراض والأهداف ومن ضمنها متجر جمال للصياغة؛ ذلك المتجر الذي له واجهتان زجاجيتان غير نظيفتين، وبضاعة يعلوها الغبار بسبب الإهمال، بجدار داخلي زجاجي على شكل مربعات صغيرة ليبدو الجدار وكأنه لوحة

شطرنج زجاجي كبير صنع محليًا، وعند نهايته بنيت غرفة صغيرة كغرفة كاهن الاعتراف، من الخشب الفايبر باهت اللون، وفي الزاوية المظلمة من أحد أركان (غرفة كاهن الاعتراف) تربض خزانة كبيرة بحجم الجاموسة، يقابلها طاولة عتيقة متهالكة يجلس عليها بعناد جهاز كمبيوتر يطل بشاشته بوقاحة متلصصًا على زبائن المتجر دون استئذان!

عُرف جمال بلباقته في التعامل مع الآخرين، خاصة فيما يتعلق بأعماله التجارية التي لا يُعرف لها صنف ولا أساس... فهو يعمل في كل شيء، على الرغم من إدارته لمتجره في شارع الشمس للصياغة التي يقول عنها لم تعد تنفع! وكأنه يبعد عنه الحسد ويطرد العين... (لا أعلم بالضبط لماذا يردد ذلك على زبائنه وأصدقائه باستمرار).

قصير القامة، طافح باللحم بشكل جهنمي، مبحوح ومخنوق الصوت كصفير الشخير- كما نوهت- يمارس الضحك مثل الهواية ويحب أن يغرق فيه حتى حافة الاستلقاء على الأرض وربما الإغماء، طيب القلب، سهل الترويض يرغب دائمًا أن يكون محور من يجلس معهم، رغم أنه لا يمتلك أي مقومات تساعده على إدارة ذلك المحور! وها هو الساعة، يصيح بهيثم بحماس فائض، معبأ بالاستياء ويطلب منه التمهل والتوقف...

وصلت صيحاته ونداءاته مسامع هيثم، فالتفت الأخير إلى الوراء، وإذا به يرى جمال يدق الأرض بقدميه وكأنه ينبشها، وهو يردد بوقار تصنعه فجأة، فرجع إليه قافلاً مستفهمًا:

- مرحبًا، ثم نوه: ماذا هناك؟!

- لقد بح صوتي وأنا أناديك... ألم تسمعني؟!

- الحقيقة أن صوتك مبحوح دائمًا، فلا تحملني ذنبًا لم أقترفه! ثم تابع بفيض من الدفئ والهدوء الشاعري محاولاً تخفيف وقع كلماته عليه: وها أنا يا صديقي العزيز أمامك، قل ما تريده وأنا كلي آذان صاغية، اطلب ما شئت وسألبي ما استطعت...

بحبور:

- ادخل المتجر أولاً وسأقول لكَ كل ما أريده...

دخلا، أول ما شعر به هيثم هو الدخان الذي كان المتجر معبأ به وكأن شموعًا كثيرة أطفأت جميعها للتو وبوقت واحد، ثم بادره جمال بالسؤال، فظهر صوته كصوت امرأة عجوز قابعة في غرفه منذ زمن بعيد ونسيت فيها:

- لي عتاب معك، لكنه وكما يقال، عتاب الأحبة...

- عتاب الأحبة؟!

- نعم... ثم عدل من لهجته التي شعر بأنه تجاوز فيها حدود اللياقة التي يعرفها، فقال: كما تعرف يا هيثم، أن تواضعي هو

أسوأ عاداتي، لكنك صديق عزيز على قلبي وزوجتك من أقاربي...

قاطعه هيثم مستثارًا ومستفسرًا:

- زوجتي!

لم يعر جمال لسؤاله وتعليقه أدنى اهتمام وتابع بلؤم وكأنه لم يسمع شيئًا:

- لا أرضى لكَ ولها أن تدمرا حياتكما وبهذه الطريقة!

- حياتنا؟! بهذه الطريقة؟! عن ماذا تتحدث؟ حسنًا، أقصد ماذا تريد أن تقول؟!

سأله هيثم مستغربًا ممتعضًا وهو ينظر له بدقة وحذر وكأنه ينقب عن أثر، باستياء وبنظرات مبددة خاسرة غير مستقرة وكأنه يمارس اللؤم ولم يبدع:

- يا حبيبي، يا صديقي العزيز هيثم، لا تفهم كلامي خطأ ولا تحمله أكثر مما يعني، كل ما أريد أن أقوله هو أنك تجلس هذه الأيام في المقهى كثيرًا، تاركًا مكان رزقك وزوجتك...

لم يجعله هيثم يكمل فقاطعه بحدة، ظهرت فيه رنة الجد والصرامة واضحة:

- كيف عرفت؟ وإن كان أحدهم قد قال لكَ ذلك، أرجو أن أعرفه... ثم استطرد مقتضبًا كالمعادلات الرياضية، لأن مثل هذا الكلام فيه الكثير من المغالطات وتشويه الصور...

بحيرة ورهبة:

- لم يقل لي أحد.

بغضب:

- إذن كيف عرفت؟

بتمرد:

- منك!

- مني أنا؟!

بهدوء:

- نعم، منك وعلى لسانك!

رد منهارًا:

- كيف ومتى؟!

رد عليه جمال بحرص وصدق:

- أنت الذي قلت ذلك وأعلنته على الملأ! ثم أردف متمكنًا ومتأكدًا: أراك يا صاحبي تقول وتنسى؟!

- أقول وأنسى؟ أي ألغاز هذه؟ ماذا جرى لكَ اليوم؟ فأنا ومنذ دخولي متجرك، لم أسمع منك إلا ما هو غريب وعجيب وسيل من الاتهامات التي لا أعرف فصلها من أصلها! ترى ما هي الحكاية؟ قل ما تريد قوله وباختصار أرجوك...

نطق هيثم بذلك وبانفعال شديد بعد أن أخرجته اتهامات جمال عن طوره.

- لا تغضب ولا تنفعل، نحن هنا كي نجد حلاً للموضوع!

صاح صارخًا:

- أي موضوع؟!

- عجيب أمرك يا ابن عمي، لقد قلت لك ولم تعر لكلامي أهمية ولم تعترف، كيف هذا؟!

- اعترف بماذا؟!

- بأنك تترك مكان رزقك الذي تأكل منه خبزًا وتبقي زوجتك وحيدة فيه، بينما تجلس أنت في المقهى مستمتعًا!

- أنت تثير أعصابي بكلامك هذا يا جمال، ثم تابع: أي مقهى هذا الذي أقضي فيه نهاري؟ ومتى رأيتني وأنت هنا وسط مدينة ميونخ، وأنا أعمل وأعيش بمسافة لا تقل عن سبعين كيلومترًا عنك؟! ها... أجبني؟ ولا تجعلني أقترف عملاً لا أحب أن أقوم به!

انفجر صوته المبحوح المخدوش في المتجر، فولد صوتًا كريهًا غريبًا أشبه بصوت البالونة المعبئة بالهواء وهي تفرغ حمولتها بقوة في الجو:

- يا الله... هل تنكر يوم كتبت في قصتك "على ضفاف نهر الأردن" التي كتبتها معترفًا بأنك قتلت نصف النهار في جلستك شبه اليومية في المقهى مع كتابك! هل تنكر ذلك؟!

عندها، استرخى هيثم، هدأ، زال تعبه وهمه فجأة، اقترب من جمال وهمس قائلاً وكأنه ينفخ ببيتين من شعر الغزل:

- يا حبيب قلبي جمال، شكرًا على خوفك ومروءتك واهتمامك بي وبعائلتي، وحرصك الواضح على حياتي واستقراري، لكن ما أكتبه ليس بالضرورة أن يكون كله حقيقة، أعني، لابد أن يدخل فيه شيئًا من الخيال، وما قصدته في قصتي تلك التي أعتز بها كثيرًا، لا تعني أكثر من خيال، فلا وجود لمقهى، بل أريد أن أطمئنك، بأن غالبية قصصي أكتبها في المتجر الذي أعمل فيه، عندما يتسنى لي الوقت لفعل ذلك، وما أكثره وأطوله!

ضحك وشاركه ضحكه وطالت ضحكاتهما وتحولت إلى قهقهات عالية وسرعان ما انقلبت إلى شيء يشبه الفحيح والسعال حتى انقطع وسطهما...

العقــرب

في لحظة خُيل لنا أنها لم تحمل في أجزائها نبض الزمن أو أنه غادرها دون أن يمسها أو يصل إليها؛ اهتزت الأرض من تحته بقوة، أو هكذا بدا لنا نتيجة صرخته التي فجرها الطالب الذي لا أعرف اسمه في أجواء القاعة التي كنا ننام فيها، فلم نشعر ساعتها بالزمن، وكأنه لا وجود له...

لوثت صرخته التي تشبه عويل الريح آفاق المعسكر الطلابي في مدينة سنجار وجرحت صمت الليل الكئيب وفضت بكارته، اللاسعة برودته الذي لا ننتظر منه سوى بزوغ صباح أقسى من سابقه ونحن نيام بعين واحدة كما يقال، بحذر رهيب نتيجة خوفنا من العقارب المنتشرة بكثرة كالبق، في تلك البقعة النائية غير المسكونة من صحراء سنجار العراقية، خاصة بعد تحذيرات الضباط لنا ساعة وصولنا، من تلك العقارب السامة التي لا تميز ولا تعرف الصديق من العدو، ولا الكافر من المؤمن!

ظل نومنا في تلك الليالي التي بدأنا فيها معسكرنا قلقًا، ولم يغمض لنا جفن، فعانينا الأرق والسهد والتعب ونحن نعد الأيام البطيئة لعلها تمضي وتكون شيئًا من الماضي، لكنها أبت إلا أن

تعذبنا، بعد أن أجبرتنا الحكومة وقتذاك على المشاركة فيه أثناء عطلتنا الصيفية، بدلاً من الترفيه عن أنفسنا كطلاب للجامعات العراقية بعد فصل دراسي طويل منهك، أو بدلاً من أن يحاول الطالب العمل لمساعدة نفسه أو عائلته في الحصول على بعض المال أثناء عطلته الصيفية؛ دُفع بنا إلى المشاركة في التدريب العسكري وعلى الكيفية التي يمكن من خلالها حمل السلاح، تلك المشاركة التي لم أجد لها من هدف، سوى كسر أنوف العراقيين وعلى كل المستويات العلمية، ليس إلا.

وها نحن نعيش تلك الصرخة القاسية المؤلمة المجروحة والمفزعة وسط هدوء وسكينة الليل البارد الموحش، الذي لم يكن لنا من دقائقه سوى أخذ الحيطة والحذر من العقارب السامة التي تدب في الليل وتنشط حركتها وهي تبحث عن ضحاياها، وهذا الطالب الذي لا أعرف اسمه، يصرخ بأعلى صوته وهو مازال شبه عار نائمًا في سريره الذي لا يتجاوز ارتفاعه ثلاثين سنتمترًا عن الأرض...

لقد كانت الصرخة مدوية مجنونة وكأنها آتية من وحش مثخن بالجراح، تلك التي جعلتنا نفز من نومنا غير العميق أصلاً، مذعورين ونحن نشعر بالهلع يركبنا وكانت هذه البداية أو الغيث للكارثة التي حذرونا منها... وقفنا جميعنا بثياب النوم، كيفما اتفق، وكأن مسًا من جنون قد أصابنا، نفور كنار في تنور، وصراخه مازال يعلن عن نذيره، ونحن نحيط به وأبداننا تهتز

لكل حركة أو وقع يصدر منه مع الشحنات التي تصدر نتيجة صرخته الهائلة، المجلجلة المخيفة التي نجهل سببها...

يا له من موقف مثار! قسمٌ منا كان يزفر بالآهات، وآخرون منه يقتربون ثم يولون متراجعين خائفين وعنه يبتعدون، وهناك من كان يشحذ الهمم ومن يقسم صارخًا بأغلظ الإيمان بأن الطالب سيموت لا محال، وثالث يدعو الجميع لعدم الاقتراب منه، كي لا تلدغه العقارب ويكون ضحية أخرى... ثم دخل علينا بعض الرجال الذين كانوا في الحقيقة من طلاب الكلية العسكرية، وهم المسؤولون عن تدريبنا أثناء إقامتنا في المعسكر، فأصبحت في لحظة القاعة في هرج ومرج، وغاصت بالرجال...

حاولنا أن نقول شيئًا، لكن كلماتنا جاءت مبعثرة غير مفهومة، تائهة والظلمة تسيطر على المكان، فلم يظهر منه سوى شبح رجل مستلق ما بين النوم واليقظة وهو يصرخ بأعلى ما تمتلك حنجرته من قوة، وكأن العقرب الذي لدغه مازال يؤدي عمله بكل برود وحرفية، وفي لحظة تحرك الطالب قليلاً فبان وجهه رغم العتمة الذي له وجه الغجر بعينين بقريتين كبيرتين قاتمتين، رفع يده اليسرى ثم رجله اليمنى وكنا نحن في هياج وحركة مستمرة حوله لا نعرف كيف نبدأ لإنقاذه، في هذه الأثناء المربكة القاسية المتشبعة بالرهبة والخوف... تقدم أحد طلاب الكلية العسكرية من الطالب الذي كان يعوي بشكل دام مجلجل وهو مازال متمددًا في سريره، فهز سريره بحذر هزة قوية، وعندما لم

يستيقظ أو يقم، نكثه بقوة من على سريره حتى سقط الطالب على الأرض وهو يدمدم بنغمة حزينة، متعبة، بائسة ويائسة وبطريقة صبيانية مفاجئة وبكلمات كانت تستحق شنقه متدفقًا وهو يزفر ناشجًا كالطفل، ثاغيًا كالشاة عند ولادتها:

- ماذا حدث؟ لماذا أنتم واقفون أمامي وحولي وكأنكم تودعونني في موتي أو كالذين يمارسون طقوس دينية لا يؤمنون بها؟! أرجوكم قولوا شيئًا.. فأنا لا أفهم ما يدور حولي... استحلفكم بالله، ماذا حصل؟! وأنا أرى نفسي وسطكم فجًا كالتيس لقد كنت أحلم بشيء لم أعرف ماهيته، لكنني ما أن أفقت عليكم، حتى ملكني الخجل، كيف هذا؟ ولماذا أنتم هكذا؟ تتجمعون حولي في هذا الليل الذي لا يريد أن ينتهي، سحقًا للشيطان، ماذا تريدون مني؟ بل ماذا تريدون أن تفعلوا بي؟!.

وهكذا ظل المسكين ابن الجنية يهذي دون أن يأخذ نفسًا؛ ونحن نضحك عليه وعلى أنفسنا وظنوننا وشكوكنا وخوفنا وهلعنا... واستمرت ضحكاتنا تجلجل في سماء المعسكر، وانقلبت تلك الضحكات إلى قهقهات لا يمكن إسكاتها أو إيقافها لأنها تعدت حدود إرادتنا وربما أيضًا قدرنا في ذلك الليل الكثيف، المخيف، والمخيم علينا والذي يحتضن الكون حتى الأفق...

الـراقــص

باتت جنون الشرقيين وقارًا وتصرفاتهم شيئًا
أقرب إلى المغامرة والمقامرة والاستهتار...

دخل ضابط الخفر لتلك الليلة على مجموعة من الجنود الفارغين، أقصد الذين لا شغل لهم في المعسكر سوى قتل الوقت؛ والوقت كما معروف هو الأيام، والأيام هي الحياة، والحياة هنا هي حياة هؤلاء الجنود الشباب المساكين الذين يتسامرون في تلك الليلة دون هدف أو معنى أو مغزى؛ وما إن دخل عليهم الضابط فجأة كالقدر حتى هبوا واقفين في حالة استعداد صارم وكأنهم ينتظرون أوامر مهمة بالغة السرية... واحسرتاه؛ أين هي تلك الأوامر المهمة التي يمكن لها أن تغير الواقع، الجازمة الحاسمة تلك التي ينتظرها هؤلاء القانطين كجنود مكلفين؟!

ضرب ضابط الخفر الأرض بقوة بحذائه الكبير الواسع الثقيل وهو يصيح كالجريح بأحمد (أحد الجنود) ويغرس نظراته القاسية فيه غرسًا:

- أين كنت؟ لقد سألت عليك ولم يجدوك.

أجابه على سؤاله متحفزًا بهزات من رأسه وببلاهة كالمعتوه ولم ينبس، بهوس بعد أن فقد أعصابه:

- لقد سألتك سؤالاً محددًا، ماذا كنت تفعل؟ لقد بحثنا عنك طويلاً ولم يعثروا عليك، ها...؟

تفرس أحمد بالضابط بدقة وكأنه ينوي قياسه، ثم ببرود قاتل أجاب:

- تسألني ماذا كنت أفعل؟! سأقول لكَ يا سيدي وذنبك على جنبك.

والضابط ينظر له مستغربًا من جرأته وطريقة كلامه وتصرفه الغريب، ثم تابع مسترسلاً وبذات البرود المريض:

- لقد كنت أرقص! نعم، كنت أرقص... لا تستغرب يا سيدي الضابط مما أقول.

ثم سأله جادًا دون خوف:

- أتريد أن تعرف كيف؟ هكذا...

وإذا به يرتقي طاولة خشبية متهالكة نائمة قريبة منه، وبعد أن اعتلاها بدأ يرقص الدبكة الفلكلورية الشعبية العراقية، ويهز كتفيه ويدق الطاولة بقدميه بعد أن نسى نفسه وأخذ الطرب منه مأخذ! ثم صاح بالضابط كالسكران:

- وتسألني ماذا كنت أفعل؟ كنت أرقص، أدق الأرض، هل يعجبك ذلك؟ عجبًا... لقد قضيت في هذا المعسكر اللعين ٨ سنوات

من أجمل سنوات شبابي، بين جدران هذا السجن الذي لا نعمل فيه شيء سوى قتل الوقت وبأي طريقة مجنونة كانت... وتسألني ماذا كنت أفعل وأين كنت؟!

صرخ الضابط بالعريف المرافق له في جولته الليلة تلك وهو يأمره بغضب تملكه وكأنه في إحدى نوبات صرعه:

- آمرك بإيداع هذا المعتوه السجن فورًا، وعند الصباح يعرض على الطبيب للتأكد من سلامة قواه العقلية...

ثم غمغم مع نفسه وبدنه كله يهتز كلهب المشعل:

- كنت أرقص قال!!

عرف عن أحمد بين ربعه وصحبه بحساسيته المفرطة وشاعريته الفذة الرائعة، التي لو ذاعت قصائده لحصل على سمعة يمكن أن ينافس فيها أعظم شعراء العراق المعاصر، له أنف سبحان الله، دقيق ورفيع وكأنه ليسوع، بعينين جميلتين حادتين كبريتيتين، كعيني عمر الشريف، وبقامة ممشوقة مثل قامة فارس عربي أصيل وشجاع... وهو القائل:

طاولتي ومقعدي

وعودي الكسير

خلاصة الماضي

وعمر الزمن الفقير

وحجرة عتيقة

يكاد أن يدقها

الشهيق والزفير

وكل ما يحيطني

من عالمي الضرير...

المختــرع

أعتقد أن الكثير من العراقيين ضحايا على شكل من الأشكال وإن تنوعت الأسباب؛ وما قصتي هذه إلا دليل على ما أقول وأدَّعي...

لم يكتمل النصاب القانوني المعمول به في رابطة الثقافة الاجتماعية والدينية، التي أُنشئت قبل حوالي عشرة أعوام من أجل الحفاظ على الجالية العراقية وخدمتها التي تقطن مدينة ميونخ؛ ومع ذلك استمرت أعمال الجلسة كما كان مخطط لها، وافتتحت الجلسة بكلمة لرئيس الرابطة، الذي يدعى فراس...

كان جميل الطلعة، هادئ الطبع، قليل الكلام، بوجه تأكله عينان صافيتان كبيرتان كعيني مهرة وأنف صغير كأنه لطفل، ومستواه الأخلاقي يفوق مستواه الثقافي وقد فاز قبل عام ونصف برئاسة الرابطة عن جدارة، وعمل فيها بجد ومثابرة وبنكران ذات غير محدود، يحسب له رغم الصعاب التي واجهت الرابطة من بعض المعترضين على شخصه وأدائه، وهل هناك تنظيم أو هيئة لا يوجد لها معترضون أو رافضون وصفوفها وصفوها يعكرون؟!.

قبل أن ينهي فراس كلمته حتى تفاجأ الحضور بالاستقالة الجماعية التي قدمها أعضاء الرابطة دون إخطار مسبق، وقبل انتهاء مدة عملهم المناط بهم بستة أشهر، ومن ضمنهم الرئيس المنتخب الذي كان مذ قليل يتحدث بلهجة لا تخلو من استياء وبعض الشرود!. ساد الجلسة الهرج والمرج وعلت أصوات الرافضين للاستقالة الجماعية التي لا تعبر عن رغبتهم، وتمتمت وغمغمت أصوات القابلين الماكرين الذين في نفوسهم أغراض غير قليلة وغير مصرح بها! ورئيس الجلسة ما برح يردد بصوت منكسر:

- أرجوكم الهدوء، وأن تقدروا قرارنا الذي اتخذناه بعد تفكير طويل، ويكفي ما قدمناه بإخلاص وتفان قلَّ مثيله في الدورات السابقة، لكننا إزاء موقف لا يسع لنا إلا تقديم استقالاتنا وبهذا الشكل المخزي إن صح التعبير.

وسكت كأنه مهزوم، وهو يشعر بالإحباط والتعاسة وداخله انكسر مثل آنية فخار مملوءة بالماء! انقسم الحضور على أنفسهم بين موافق خبيث، وبين رافض للاستقالة محب، حتى اعتلى المنصة أحد جمهور الحضور منتزعًا مكبر الصوت من يدي رئيس الرابطة وكأنه ملكه وصاح بالحضور متلهفًا كمن لم يصدق بأنه أمام جمهرة من الناس أو أنه لم يكن يفهم ما كان يدور حوله:

- أعزائي الحضور، نظرًا لعدم اكتمال النصاب القانوني، أقترح عليكم برفع الجلسة على أن تقام بعد شهر من تاريخ اليوم، وتعقد

بمن حضر... ورفع درجة صوته، فجاء صوته مخدوشًا عبر مكبر الصوت كالصوت الذي يأتي من دُف مثقوب: ها... ماذا تقولون؟!.

في هذه اللحظة التي علت فيها مجددًا أصوات وقهقهات وغمغمات وغمزات وتمتمات الحضور، نهض أحدهم بخفة شبح ملعون نكد في كهف مهجور، وكان يدعى عجيب، سبحان الخالق الذي صوره بهذه الهيئة والصورة، له جسم نحيف كالأفعى، برأس صغير، حليق الوجه، وشعر رأسه مقصوص بطريقة بانت وكأنه مجزوز جزًا كشعر المساجين، عيناه تنطقان بالخطر، وفمه يشبه شرج البغل، غريب الأطوار كبقرة معزولة، فلم تعد تدر اللبن ولا تسمن، بذيء اللسان، سريع التهور والاشتعال، ويقول عن نفسه مغاليًا - عقلي يزن بلد - ولم ينوه الخائب أي بلد يقصده؟! ناهيك عن عروقه المخيفة التي تظهر في وجهه ورقبته فجأة كلما تعصب أو غضب، فتبدو متورمة واضحة وكأنها أمعاء كبش ذبح للتو ولم تفرغ من محتوياتها بعد...

في تلك اللحظة التي تداخلت فيها أصوات الحاضرين وعلا الصخب داخل القاعة - كما قلتُ - قفز صاحبنا المنكود كالدجاجة من مكانه زاعقًا، صائلاً، زائرًا كالريح الخرقاء الهوجاء باهتياج مذبوح وهو يطرف بعينيه دون سبب معلوم، يردد بحماس منقطع النظير، يتحسس حنجرته التي تشبه الخوخة بأصابعه ويتوجه نحو المنصة متخبطًا سائرًا بعينين مفتوحتين كالبصير، يلعق شفتيه

الممصوصتين الحادتين ساحبًا شيئًا أبيض من تحت قميصه، فاردًا يديه على طولهما كالوطواط بعد أن اكتسى وجهه منظرًا مخيفًا وبطريقة مسحورة شبه شهوانية:

- أ... يا سيدي الكريم (وهو يوجه كلامه إلى رئيس الرابطة) لقد قمت بالاتفاق مع حكومة دولة الدنمارك الصديقة على تزويدي بكل ما يتطلبه اختراعي الجديد هذا...

قاطعه فراس مستغربًا ومستفهمًا وهو يتفحصه وكأنه يزنه:

- اختراع جديد! وبالاتفاق مع حكومة دولة الدنمارك الصديقة!

لوَّح عجيب بورقة بيضاء أخرجها ببراعة من عبه كالساحر بخفة رهيبة، وبخبث كخبث ابن عرس مدفوعًا بشيطان أجرب شهرها في وجه الرئيس كالسيف، متأهبًا يهم كالديك بالصياح خاطبًا بخفة دم لا مبرر لحضورها في لحظة عصيبة كهذه، كالذي غلبه الطرب في إنشاد قصائد شعرية منفلتة الأوزان والقافية:

- إذا لم تصدق، فهذه هي دليل اختراعي.

(وهو يلوح بالشيء الأبيض الذي استخرجه من تحت قميصه)، وأضاف وكأنه لا يعرف ماذا يقول وبدنه يهتز ويرتد كحصان قبل عاصفة راعدة:

- إنها ورقة مستنسخة، ليست أصلية، لكنها تفي بالغرض في هذا الوقت، وتثبت صحة ادعائي أني مخترع عراقي بارع!

بمرارة وريب:

- ولكن ماذا تقصد باختراع واتفاق؟ في الحقيقة نحن لم نعرف ماذا تريد منا بالضبط؟!

صاح ناعقًا بشراسة وخبل فبدا بمنظره أشد سوء من الشيطان اليقظ في ساعات غضبه، بعد أن لمعت عيناه بالفزع وجبهته بالعرق:

- ماذا أريد؟ كيف هذا؟ أنا عجيب العراقي المخترع، الذي حوَّل المياه الآسنة إلى مياه صالحة للشرب، وكان كل ذلك على مرأى ومسمع من الحكومة الدنماركية الصديقة!

بأنفاس مثقلة بالغم، مستسلمًا مقهورًا ومغلوبًا على أمره أجابه فراس مشفقًا:

- نعم، نحن نتفهم عبقريتك الفذة، ولا خلاف عليها، لكن هذا ليس وقته! وعرض عن جملته مداريًا، حسنًا، أعني، نحن الآن في مصيبة لا نعرف كيف نخرج منها، لا تسر عدو ولا صديق، وأنت تلوح لنا ببراعة اختراعك هذه التي نقدرها كثيرًا...

لم يجعله عجيب يكمل ما أراد قوله، فنبح هائجًا وهو يدق الأرض بقوة بقدميه مغتاظًا:

- أنا أردت فقط توضيح مقدرتي العلمية التي ستساعد الكثير من جيراننا الذين يقطنون الكرة الأرضية ولم يجدوا ماء صالح للشرب!

بتعاسة وحاله أسوأ من جهنم:

- أرجوك سيد عجيب، أراك قد تجاوزت حدود اللياقة، إذ كنت مذ قليل رجلاً عاقلاً... معذرةً، أقصد، حسنًا، رجلاً متزنًا، هادئًا ووديعًا... ترى ماذا حصل؟ ماذا جرى لك يا بني؟ ثم بمرارة نوه: أرجوك خذ مكانك، ارجع إلى مقعدك ودعنا نكمل وننهي هذه الجلسة على سلام، على الرغم من أني غير متفائل كثيرًا على أنها ستنتهي على خير!!

ثم ردد مع نفسه وكأنه يسرها: "مجنون هذا أم ماذا؟ هل كان يعتقد أننا في ندوة علمية أو في مجمع علمي يكرم فيه المبدعون؟ هل كان في مخيلته على أنه سيحصل منا على ثروة أو مكافأة؟ ما هذا الغباء الحاد الذي يتمتع به؟ ثم يقول، أنا مبدع ومخترع وعقلي يزن بلدا!"، وفي هذه اللحظة التي كان فيها فراس غارقًا في مخليته سمع صوتًا عاليًا كالانفجار مدويًا أمامه، لم يكن هذا الصوت سوى نتيجة وضع عجيب الورقة بعصبية على الطاولة التي يجلس خلفها رئيس الرابطة... تلك الورقة التي يقول عنها عجيب دليل اختراعه الغريب، ثم غادر القاعة دون سبب وجيه أو واضح... كمثوله وهوسه أمام رئيس الرابطة؛ قاتله الله وأخزاه... هو المنصف، العادل، السميع العليم.

الطبـــق

يقول الكاتب الروسي دوستويفسكي في إحدى رواياته: إن عظمة بعض الناس تستمر فقط إلى اللحظة التي يفتحون فيها أفواههم!!

دخلت المرأة العجوز الألمانية الأنيقة التي يبدو عليها الثراء متجر الآنسة نهاد للزهور، مع كلبها الصغير النظيف الذي ما أنفك يشم كل الأشياء التي حوله وعلى طريقته المفضلة؛ ما أن رأته صاحبته وهو يلهث وكأنه يحتضر حتى حدثت نهاد بطريقة جاءت بين الرجاء والعطف:

- هلا أحضرتِ للكلب قليلاً من الماء ليشربه.

ثم أردفت بقلق غريب:

- انظري إليه إنه يتنفس بصعوبة، أرجوكِ عجلي بالماء وسأكون شاكرة فضلك ومعروفك...

لم تتوان نهاد ولم تتباطأ... أحضرت طبق مصنوع من الزجاج الملون الذي يشبه الصحون الصينية المنقوشة، فوضعته مملوءًا

بالماء أمام الكلب بسرعة، فتفاجأت المرأة الألمانية متأسفة، مهضومة ومقهورة وهي تردد بأسى منقطع النظير:

- مسكين كلبي هذا، لم يستطع الانتظار حتى العودة إلى البيت، فاضطر أن يشرب من هذا الطبق العتيق المتهالك الذي لا يبدو عليه آثار الصحة والنظافة!

استغفرت نهاد ربها بصمت وبحسرة متفكرة كمن حانت منيته ولم تعلق أو تعقب على قول الزبونة، لأن طبقها الوحيد الذي تبرعت به من أجل أن يشرب الكلب العطشان الماء فيه هو الوحيد الذي تمتلكه في متجرها وهو الذي تتناول يوميًا غداءها فيه!!

الكايزر العراقي

خطايانا عنيدة وتوباتنا خسيسة ونحن نتقاضى ثمنًا
غاليًا لاعترافاتنا ، ونعود بفرح إلى الطريق الموصل
معتقدين أننا بدموع حقيرة نغسل جميع أوساخنا!!
بودلير

تنويه لأن قصتي هذه يصعب تصديقها:

أقسم بعمري الذابل، وروحي التي سكنتها الجراح قبل أن تولد، والأمل الذي لا أعيش من أجله، بأنني غيرت عنوان القصة وأعدت كتابتها تسع مرات بقناعة لم تقنعني! وأنوه أنني لا أطلب في قصتي من القارئ المنتفخ بالغرور والعظمة مثلي الذي يدَّعي أنه سيغرق العالم بإيمانه، أكثر من صبره.

زمن القصة:

حفرة كبيرة مثل جبل في الظلام وزمنها زمن منهوب، واقع بين ولادة القيصر وحتى ولادته الثانية والعاشرة والمستمرة إلى جحيم الآبدين... لأنه وببساطة شديدة رب، والرب لا يموت! سحقًا لنا... لماذا نريد منه أن يموت؟!.

مسرح القصة:

كل العالم إلا الوطن! مكان يعرفه كل العراقيين الذين ولدوا بمعجزة. وما يكون مسرح قصتي غيره؟! ضياع العراقيين في متاهات الغربة طبعًا.

القصة:

عجين لا يريد أن يختمر! أقول عكس ما تقوله الكتب: "إن من يعرف الحقيقة هو من لا يتجرأ على الكذب".

الكايزر العراقي، قصة قصيرة صريحة وسرية جدًا، لذلك أعلنها على الملأ قبل وقوعها كخطط حروبنا المخجلة ضد إسرائيل! أحذركم من (فشها أو طشها)، لأن الحقيقة القاسية المؤلمة أو المخجلة في بلادنا يجب أن تبقى سرًا كالفضيحة! خاصة إذا تعلقت بحقبة تاريخية مهمة من حياة أولى حضارات العالم قبل طغيان العصر الهمجي، المنحدر من زمن الديناصور النادر المهجن بالتبني من سلالة جنس الكايزر العراقي الخالد الأزلي والأبدي؛ وحتى انقراض أخر جنس بشري عراقي على أرض مهد الحضارات بابل التاريخية!.

أنا هنا مجرد شاهد على هذا العصر كمؤرخ مخلص لا أريد إلا أن أروي ما سمعته ورأيته في السنين المنقرضة الحاضرة والآتية، وأقول هذا لأن زمن القيصر يمر سريعًا كالبرق لا نكاد نحسه فكيف لنا أن نحسب حركته؟! فحاولنا أن نقدر سنوات

حكمه بالأيام! وقد ارتاح لمعادلتنا الحسابية هذه كثيرًا... كافأنا بغدق بأن نفانا نفيًا وهو يضحك بسعادة عجيبة كابن قحبة*.

ارتأيت أن أحدثكم عن القيصر الآن وقبل أن أتحول إلى شيء يشبه سكون الأصنام، وإذا صادف وبعثت من جديد أكون ساعتها مرتاح الضمير! وهذا أمر مستبعد جدًا، بل مستحيل، لأن الكايزر لا يموت وبالتالي لا يحتاج أن يبعث من جديد فهو موجود ما دام الوطن موجود؛ طحن الله عظامه ونثرها في الهواء كالنشاء.

اسمحوا لي أن أقول شيئًا كشيطان يتجلى في لحظة تأمل وصفاء (قد يبدو ما سأقوله غريبًا) لكنني أقسم بعدد أصابع يديَّ العشرة إن ما سأسركم به حقيقة: العراقي كان وما يزال يولد قبل أوانه، لكن المعجزة التي انتحرت منذ زمن بعيد ويد الله الرحيمة الحكيمة؛ كانتا دائمًا تتدخلان لعيش العراقي ككائن لم يولد مثل نوعه وجنسه على الأرض، وبهذه القياسات الخرافية شبه المطلقة... أليس هذا أمرًا مدهشًا ويستحق العناية والمتابعة؟!.

***كتب لي أحدهم مستفسرًا: لماذا تكتب بإباحية؟ كما حصل مع قصة الشهوة وطريق الهجرة، أجبته سائلاً: ولماذا كل هذا القهر في العالم؟! ثم أردفت: أخبرني عن ذلك وأنا سأقول لك ما في داخل مصارين الشيطان... ولم يحر جوابًا، وربما اعتبر الصمت صلوات للرب كما يقال! في حين طلب مني في وقت سابق رئيس تحرير إحدى المجلات الخليجية المعروفة والتي تديرها شيخة بحق من بيت السلطان قائلاً: ارفع كلمة الشيطان من كتاباتك وأتعهد بأن أنشر لك كل قصصك في مجلتنا! ولأنني لا أريد أن أكون حمارًا، وافقت على طلبه!.**

ثم أقول مبتهل مثل ملاك حقيقي لا ينقصه سوى جناحين: "جزانا الله على قدر أعمالنا ونياتنا، ووقانا شر الحاسدين"، وألفت انتباه القارئ إلى أن سرد القصة سيكون مسؤوليتنا الأخلاقية والأدبية أمام الله وأمامكم "أقول هذا وأنا أشعر أن صوتي يكاد يكون مخنوقًا وفمي مكممًا"، لكن هذا سوف لن يمنعني من مواصلة الحديث معكم...

• • • •

لم تعلن الساعة عن نفسها الثامنة من صباح القرن الحادي والعشرين، السبت من عام التوبة؛ احتلَّ النور العالم من الجهة التي يسكن فيها عبد الخالق، وركد الظلام مخيمًا في الطرف الآخر منه؛ وما أن كفَّت رياح الليل من صفيرها حتى بدأت نسائم الهواء العذبة بالتصفيق بهمس ورقة مثل اصطفاق جناحي ملاك سمائي رحيم... فنظفت الأرض من أوساخها كربة بيت ماهرة؛ قرر عبد الخالق بعد أن ابتلاه الله بالمرض كما ابتلى سبحانه العراقيين كونهم من العراق، ورأس ذنوبهم حبهم لوطنهم... يا لها من جريمة لا تغتفر! وعقابها كان جماعيًا؛ شواء العراقيين أمام عيون العالم أجمع في موقد الغربة الكبير المتقد! ربما يستحق العراقيون ما يحصل لهم، لماذا أحبوا وطنهم بهذا

القدر؟! بحق الجحيم أي ملاك أوصى أو اقترح عليهم هذا الحب؟.

قلت، قرر عبد الخالق بعد أن ابتلاه الله بالمرض وبعد أن أشار عليه طبيبه الخاص في ألمانيا - حيث يعيش - ضد مرض التهاب الرئة الذي يفرح ديدان الأرض لخبر كهذا للعلاج والنقاهة في إحدى المعسكرات الصحية الراكدة على أعلى قمم جبال الألب القريبة من الله، والمحاذية لحدود النمسا، والمسماة بقمة الكايزر، وكأن القيصر أو الإمبراطور لا يرضى بأقل من هذا الارتفاع، حتى لو تعلق الأمر بالتلال والجبال! ماذا نفعل؟ علينا أن نقبل! ولكن الشهادة لله...

كانت قمة بيضاء تلمع كنطفة الرجل، مطلية بالثلوج - وكما قالوا له- تبقى هكذا صيف شتاء بقدرة واجدها؛ لها شكل ملتوي متدرج تجلس على أكتافها الصخور بشموخ، وتتسلقها متجهة نحو الأفق العالي كملوية سامراء، التي لم يرها إلا في صور الأطلس الذي وزعته الحكومة يومها بقرار من قيصرها مجانًا، تحت اسم مجانية التعليم، وسلبت من العراقيين بدلاً منه عمرهم! ماذا يعني هذا لكايزر، كان يسمي نفسه الوطن والمجد والأخلاق والشهامة والجمال، سحقًا لقد نسيت أن أذكر أنه كان يعتبر نفسه مبرر وجودهم! ومن يتطاول بلسان طويل أو قصير أو حتى بلا لسان ويرفض... يعطيه القيصر بدلاً من حياته أطلس جميل ملون الأوراق، أملس كالصلعة براق ورائع، فيه خرائط محافظات

القطر العراقي السبعة عشر مجانًا... يا لها من مقايضة خاسرة وخسيسة؛ لقد كان يفعل كل ذلك بشذوذ رهيب وهو يقهقه بعنجهية كوحش استبد به الشبق، وصدره الممتلئ الذي يشبه صدور المرضعات يهتز وتهتز معه جدران القصر، رافعًا يده اليمنى كالمتسول مرددًا:

- كيف هذا؟ لقد بات أصدقائي أقل من حراسي!

ثم يبصق على الأرض وأحيانًا على من كان واقفًا أمامه ويهتف:

- هذا لا يرضي أحد... فما بالكم لو كان الكايزر شخصيًا بلحمه وشحمه وعضوه التناسلي الذي يفوق عضو الحصان طولاً وعرضًا؟! ثم يهدهد مترنمًا - ولا أعلم - ربما حزينًا مستهترًا: آه... كم أحب هذا الوطن؟ ويجيب على تساؤله مضيقًا كالنذل: كيف لا وأنا الوطن نفسه!

ثم يصرخ بخبل ووحشية كهتلر عندما كان يخطب، بوجه مكروب وبسحنة كبريتية غامقة، أغمق من الهول بلون برازه، ومؤخرته تطلق أرياح جهنمية مقلقة، تخافها حتى الكلاب السائبة والمحبوسة:

- أعيش وأحيا أنا!

غفرانك يا رب... ماذا أقول وكيف أصفه؟ رحماك يا رب وأنت القادر على كل شيء، لقد كان مجرد المشاعر كمومس بحارة مرفأ، أفّاق يحاكي الشياطين ويعرف كل حيلهم ويتغلب عليهم

بمكره وخبثه وإغوائه، ذئب يمشي على قدمين، داهية كأنثى القرد، تواق إلى ممارسة العار، سفاح بمعنى الكلمة، لا يهمه في حياته أكثر من صنع الكوارث لما حوله، إبليس بلا رحمة ورذائله لا تريد أن ترتوي أبدًا، خاصة عندما نهق مصرحًا متممًا ما كان داخله يصهل به:

- هؤلاء الغرباء - يقصد الشعب العراقي أبناء الوطن بالعادة- لا يريدون أن يفهموا، لولا وجودي في سمائهم - على اعتبار أنه الرب- لما ساوى عراقهم بعرة خروف!

ثم يفتح فمه العريض كالتمساح ويضحك بسفاهة قاتلة، ويهتز صدره مجددًا وتهتز جدران القصر من أساساتها...

لأرجع إلى النقطة التي بدأت فيها كتابة هذه القصة التي أتوقع أن ألقي حتفي بسببها... ما أن جمع عبد الخالق شجاعته واستحضر جرأته وما تبقى من إرادته، عزم بعد تناوله فطور يوم السبت الدسم أن يرفه عن نفسه، بعد أن شعر بأنها موحشة في الأيام الخمسة الأولى من إقامته في المعسكر الصحي - ولا يعرف عبد الخالق بالتحديد نوع الشيطان الذي يوخز عقله كي ينادي المصحة التي يتلقى العلاج فيها بالمعسكر؟، ويظن وقد يوافقه القارئ العراقي هنا أنه لسبب نفسي موجود داخل كل عراقي كوجود الكبد والبنكرياس في جسم الإنسان الطبيعي- ذكرت، أنه أراد أن يرفه عن نفسه، ولكن قبل أن أتابع سأصف عبد الخالق

قليلاً بحكم حبي المجنون للوصف وبلاغة التشبيه الغريبة التي يتصف بها نسل إبليس وأنا على ما اعتقد أحدهم...

تجاوز بطل القصة -الذي يعتبره الآخرون منحدرًا من نسل هابيل- للتو مرحلة الشباب ودخل خريف العمر المحفوف بالتوجس؛ خجول ويقول عن خجله بإنه لا علاج له كمرضه، تمتع بعادات كثيرة لكنه لم يدمن على إحداها، فعاش حرًا؛ له وجه يوحي بالغنى والتواضع، وعينان مبتسمتان برمشين قصيرين يعلوهما حاجبان رسما بدقة، وجلده يشبه جلد الفقمة، ويديه ناعمتان لا تحزر منهما مهنته، طاهر مثل صفحة بيضاء، زاهد وبسيط كالماء، رفيع العود، قليل الأكل، ممسك الكلام، طيب السريرة رحيم القلب، لكنه مترع بالألم الصامت غير موذٍ مثل ضحية ولا ينزعج عندما يصف نفسه أو يصفه الآخرون بالسكير والكافر والقاتل، إذ غالبًا ما يرى نفسه النقيض من هذا كله... صبور وصبره لا يقارع مثل صبر الآلهة لكن ذاكرته ضعيفة جدًا ولم تنتعش يومًا كصحته، يقول عنها مثل صفحة ماء لا يمكن الكتابة عليها... يسافر إلى أقصى نقطة في العالم وهو مازال في مكانه متسمرًا، حيث يسافر بخياله، وروحه هائمة لا تعرف الاستقرار مثل خياله، لا يحب ولا يحقد، مؤمن بعقيدة فردية قوامها الله وليس دين الأمة التي ينتمي إليها، وغالبًا ما يعيش في عالم غير عالمنا، محبًا للفن وشياطينه...

غادر بوابة المعسكر دون خطة حكيمة مسبقة أو موضوعة من قبل، كخطط قائد القوات المسلحة العراقية! سار في الشارع المقابل للبوابة مباشرةً والمتجه نحو الله، أقصد نحو القمة، كسجين هارب، توقع أن لا يلتقي أو يرى هناك إنسانًا أو حيوانًا، وسعد لحظتها عندما أحس بهذا الشعور الذي سيجعله وحيدًا مع ربه لنصف نهار على أقل تقدير، هام سارحًا مترجلاً كناسك في صحراء وهو يخطو بخطوات سريعة نسي فيها مرضه، وللصدق والتاريخ العربي المغرم به لصدقه أقول بوضوح: كانت خطواته واثقة كمن يخرج من قاعة محكمة، بعد النطق بحكم البراءة من تهمة كانت خليقة أن تودعه الحبس، وفجأة صدح في أذنيه صوت المطرب حاتم العراقي وهو يغني موال (الطيب لا وجود له في عالمنا...)، فتذكر أنه كان قد وضع سماعة التسجيل الصغير في أذنيه، والذي حمله معه دون تفكير ثم نسيه وتركه يشتغل على هواه، دون أن يعي أنه سيرطن معه بلهجة عراقية عامية دارجة وهو لا يريد أن يسمع أو يتكلم مع أحد ساعتها... ضغط على زر التشغيل وأتى على حسه، فمات الطيب واختفى صوت العراقي!

يا له من صعود رائع (هكذا حدث عبد الخالق نفسه) إذ؛ والحقيقة يجب أن تقال، كان ينهب الأرض بسيره نهبًا، بل يلهبها كالأسواط على ظهور الجياد، بغية انطلاقها بسرعة جنونية، وهنا لا تنطبق عليه إلا حكمة الروائي العالمي "ماركيز" عندما قال: "لا يوجد دواء يشفي ما لا تشفيه السعادة، والطبيعة هي التي

عالجتني من أمراضي التي سببها لي الأطباء بأدويتهم"، يتقدم بعنفوان ويحك سطح الأرض بقدميه منتعلاً جزمته ذات الرقبة الطويلة، الخاصة بتسلق الجبال وللترحال، والهدف كان واضحًا من سياق القصة -ارتقاء قمة القيصر ثم الوقوف على هامتها المنتصبة الشامخة ليدوسها بجزمته – يا له من حلم لذيذ ومدهش سيصبح واقعًا بعد قليل...

ذكرتُ أن هامة الكايزر- معذرةً، لكي لا يؤول كلامنا هنا إلى شيء آخر - أقصد قمة جبل القيصر كانت قريبة من الله... حتى أن عبد الخالق اعتقد بأنه بدأ يسمع أصواتًا وصلوات وهتافات ودعوات وابتهالات كلما اقترب من القمة، لم يسمعها من قبل عندما كان يعيش عند السفح قبل حضوره لتلقي العلاج، وقد فرح كثيرًا بهذه النتيجة دون سبب واضح، وربما شعر بحماية الله له بالفعل بحكم قربه! وكأنه في قلب رحمته وساكن في رحاب ذاكرته الواسعة غير المحدودة، التي لا تنسى أحد مهما كان جنسه، دينه، لونه أو نوعه، وهذه هي بالتأكيد الوصية الحادية عشرة التي نادى بها زازاي (مؤرخ وناسخ عاش في العصر العباسي ويقال إنه وراء الكثير من النصوص الدينية التي ظهرت مؤخرًا).

سار مندفعًا وهو يرفس الأرض ويجعلها خلفه بعد أن انتظمت ضربات قلبه رغم قسوة ومشقة الصعود، ولم يستهلك من الهواء إلا أقله وكأنه يتنفس وهو نائم على سرير من الماء، والساعة لم

تعلن الثامنة صباحًا بعد، ونسيم الهواء أصبح يميل إلى البرودة شيئًا فشيئًا كلما توغل صعودًا، ولاحظ أنه قد نسي ارتداء معطفه الأسود المتواضع الذي يشبه الجاكيت التركي إلى حدٍ ما بأزراره الفضية، التي تذكره كلما ارتداه بالدراهم العراقية القديمة؛ لكنه لم يتراجع وقرر دون جزء من لحظة تفكير السير قدمًا وحتى الرمق الأخير، كجندي عراقي مسكين لا أمل له في النجاة من موت محقق، في إحدى معاركهم النضالية الحربية المعتدية دائمًا، قرر المسكين المضي في طريق الخلاص، وعبد الخالق الذي يعبد ربه لم يفعل غير هذا، ضحك بداخله كالطفل لتلك الهواجس السخيفة التي كانت تمر على ذهنه في ساعة مبكرة من صباح سبت مازال نائمًا، وهو هائم كأنه بصحبة كلب يريد قضاء حاجته في الخلاء، بحرية لا يمتلكها العراقيون في بلادهم دون رقابة، (وهنا لا أريد أن أفتح موضوعًا شائكًا جديدًا قد يؤخذ علينا مأخذًا)، لكن عبد الخالق كان يشعر بإحساس غريب، وكأن هذا الصباح سيكون فيه نهاية العالم، وكاد حدسه يصدق...

ما إن توغل دون هداية ـ كأسباب الحروب العراقية التي نسينا عددها ـ نحو القمة، ممتثلاً لإرادته التي كانت تطوقه كالنير في رقبته، (النير هو طوق خشبي يستعمل في الصين قديمًا يطوق فيه رقبة السجين)، حتى رأى صبيًا على هيئة عجوز في تقوس هيكله، يحمل على ظهره حدبة، وتجعد وجهه يشبه حبات الزبيب، بعينين داكنتين متعبتين ضيقتين تبدوان كجرحين في الوجه بلا رموش،

يمتطي دراجة هوائية بعجلات ثلاث، وقدَّر سنه نحو السابعة، له رأس بيضاوي صغير، مشدود الجلد كبطن الضفدع، بأذنين كبيرتين مشعرتين، دقيق وناعم العظام، بأسنان مثلمة تشبه أسنان الرضيع، له نظرة مثل نظرة الحمل المقبل على الغرق، وابتسامته كنظرة عينيه.

استغرب عبد الخالق من وجوده غير المتوقع، في مكان منعزل موحش كحياة العراقي في منافي الغربة! فاستوقفه متسائلاً مشدوهًا بلا شعور، كأنه يتوسل بالصبر لإنقاذه ويحاول أن يبحث عن عيني الصبي كي يركز فيهما بنشوة لاسعة، كنشوة اللحظة الأولى من وقوف المرء فجأة تحت شلال بارد جدًا:

ـ هل أنت عراقي؟

بوهن كمن يزن قدر روحه متجاهلاً سؤاله ومضيقًا عينيه تحت حاجبيه:

ـ وأنت؟

ـ إي... أنا كالعادة...

توقف لبرهة التقط فيها أنفاسه وهو يسر ذاته هاسًا، عونك يا رب يا إله الفقراء ثم تابع مغمض العينين مجيبًا:

ـ أنا عراقي مغترب، وعاد وسأله مباغتًا مثل كبير كهنة الشياطين: لكنك لم تجب على سؤالي!

رد عليه بنغمة ساحرة حزينة وشجية مثل نغمة الناي تفتت الأكباد:

- وأنا كذلك.

- إذن أنت عراقي؟!

قال ذلك بانفعال عاطفي مفتون وبلهجة لا تدل على التصديق، كمن يراهن على عظامه، الذهول يملأ عينيه والدهشة تلبس وجهه، غاضبًا كالروح المتحررة من آثار الشك وبصوت يشبه الصرير:

- أنت إذن لا تفهم!

قال صارخًا وكأنه يود إيقاظ الموتى من قبورهم:

- بلى، لكني أكاد لا أصدق عيني.

ثم خاطب عبد الخالق نفسه مغمغمًا: "يا مسبب الأسباب يا رب السماوات كيف تأتي بطفل بهيئة عجوز، بوجه مجعد كحبات الزبيب، على دراجة هوائية بعجلات ثلاث وعلى قمة جبل القيصر؟ إنه أمر خارق"، ثم تابع متورطًا:

- هل تسكن هنا؟

برنة ملؤها الوقار والألم كرسول في بدء دعوته:

- كلنا نسكن هناك وحيثما نتعفن خلف هذا الجبل معزولين كبومات تنظر، تنام وتنتظر...

وهو يشير بسبابته الغليظة الطويلة التي تشبه عضو الذكر المنتصب!

- هناك أين؟

وهو يمسح المكان بنظره وكأنه صائغ يعاين قطعة ألماس يود شراءها، ثم غمغم بوجه من يفتقر إلى تعزية أو مواساة:

- أنا لا أرى سوى فراغ لا منتهي!!

بكلمات بليغة:

- هذا ما عنيته بالضبط... هناك في قلب الفراغ الموحش!

تغير لون عنقه وانتفخ، ازداد إحمرارا محتقنًا وهو يطلق زفيرًا:

- باه... ماذا تقصد؟ ثم مستفسرًا: قلت نسكن، إذن أنتم كثر؟

بروح معذبة وبقلب مكلوم مثقل بالأحزان:

- بالملايين!!

ردد مضيقًا بصوت خفيض ورقة: "أراح الله روحك وأزاح الهم من قلبك وطرد الوسواس من عقلك"، بمزاج منحرف كسياسي عراقي بلا حياء وكأنه لا يعرف:

- يا رب العباد... بالملايين؟

- نعم بالملايين.

ردد بمرارة لها طعم حساء الضفدع في الفم، باستغراب متراخي المفاصل:

- الحقيقة أنا لم أعد أفهم شيئًا مما تقول!

بإيحاء فلسفي:

- كيف أشرح لك الأمر؟ ثم أردف متخابثًا: أترك لك فهم ما تشاء.

بتهكم ساخر وابتسامة بلا تعبير ترتعش على شفتيه:

- أراك صبيًا حكيمًا.

بجد غاضبًا بعد أن اتقدت عيناه كجمرتين والدم في عروقه يفور كمن فقد صوابه:

- احترم نفسك.

رد مهتاجًا وهو يرغى ويزبد بعد أن تلاحقت أنفاسه بسرعة جنونية رهيبة وكأن قلبه يؤذن بالانفجار:

- احترم نفسي! يا لمسخ الشيطان... ولكن لماذا؟

قال هاسًا كفحيح الأفعى:

- لأنك قلت عني صبي وأنا لست كذلك!!

أجاب مجهدًا وهو يردد مع نفسه:

- يقال إذا تقدم العمر بالشيطان يصبح ناسكًا.

شعر بأنفاسه أصبحت ثقيلة كأنه يتنفس بزفير، رد قاصفًا:

- لست صبيًا؟! يا لأسرار الله المقدسة... وما تكون يا بني إذاً؟ ثم استطرد: أنا أرى أسنانك المثلمة الماثلة أمامي بوضوح والتي وصفتها مذ قليل بأسنان الرضيع وجلدك شفاف مثل جلد الجنين!

متوجعًا وبقسوة لها أثر لدغة الناموس في الوجه:

- هذا لأنك لا ترى ولا تعلم عنا الكثير رغم ادعائك أنك عراقي!

وتابع بلغة حكيمة مثل لغة الشيوخ:

- ما أراده قيصرنا هو هذا بالضبط!

مثل شرير يحب الثأر:

- قيصركم!!

- نعم، يريد أن يجعل من الكبار صغارًا ليدوسهم ويعذبهم، ومن الصغار كبارًا لكي يدافعوا عنه، يريدهم أن يكبروا سريعًا ليدفع بهم نحو ساحات القتال التي يبنيها بمهارة مثل جلاد متمرس على قطع الرؤوس! ثم تابع بعد برهة قصيرة: أنا أصلاً في الستين! وإن لم تصدق أحكي لك حكايات لم تعشها وأنت بهذا العمر ولم تلحق عليها بعد!

مرتجف الأطراف:

- في الستين! يا رحمة الله... ثم بشغف: أي حكايات تقصد تلك التي أجهلها؟!

بنظرة قاسية كمن له من الأفضل أن يموت، برقت عيناه فجأة وقال:

- حكاية القيصر العراقي، كيف ولد قيصرًا قبل أن يولد، وحكاية حياته الشنيعة، وقصة مماته، تلك التي لم يمت فيها فاستمر كايزرًا وما يزال!

منتفخ الأوداج:

- لم يمت! كيف هذا؟ لقد أثرتني بكلامك! أنا رأيته يشنق عبر شاشات التلفاز، والحبل الذي شنق به يشبه حبال مراسي السفن غليظ وقوي...

ثم غيَّر من لهجته ونادى متوسلاً كشيطان خانته ذاكرته:

- أرجوك احك لي ما عنيته وقلته للتو، ما حكاية هذا الإمبراطور الذي ولد إمبراطورًا قبل أن يولد؟ أرجوك أنا لا أريد منك سوى سماع تلك الحكاية...

باغته برصانة:

- وتصدق وتعترف بعدها أني لستُ صبيًا؟

برنة ملتهبة وهو يتصنع البكاء، مثل رنة ضابط عراقي يعيش على الرشوة:

- دق الله عنقي، سأفعل طبعًا، أصدق وأعترف بجهلي (قال ذلك وهو يصلب يديه على صدره) وتابع: ولكن أرجوك احكِ لي

القصة منذ البداية ولتنزل على رأسي لعنة السماء وأكون بعدها راضيًا...

- همّ... حسنًا، سأروي لك الحكاية ومنذ البداية: يقال إن صفاء العين من صفاء الروح، وعينيه لم تكونا صافيتين ويبدو كأنه من قوم سالومة، أرعن لا يستطيع أن يقسم الشعير بين حمارين كما يقال، ضحكته شرسة وفي عمق دعارته التي تشبه ذوقه لا تجد رواسب خلق كريم؛ ولد الكايزر العراقي قيصرًا قبل أن يولد، العرافة قالت لأمه ذلك، لأن أباه لم يكن موجودًا أو معروفًا!! كان كبيرًا طويلاً مثل عملاق، اسطواني القامة برأس يشبه القبعة المكسيكية، فبدا لنا مثل الحقنة الشرجية الكبيرة، لا يمكن تحديد عمرها، معذرةً، أقصد لا يمكن تحديد عمره وكانت هذه مأساتنا، حيث لم نستطع معرفة عمره الحقيقي، هناك من قال عمره ١٥٠، وآخرون قالوا وهم يقسمون بأغلظ الأيمان إنه لم يتجاوز ١٢٠ والقِسم الثالث أشار أنه ليس متأكد وعمره يتراوح بين ٧٠ و٩٠ ثم يذكرون أخبارًا عن ذويهم ويقولون مبالغين في تقديرهم: إنه ولد قبل أن تبنى العاصمة، حيث ولدوا وكان موجودًا حاكمًا قيصرًا على سن الرمح! وهذا ما يسمى في عرفنا العهد البائد الحاضر...

قاطعه عبد الخالق معترضًا سائلاً بحماقة وهو يمد لسانه كلسان المشنوق:

- العهد البائد الحاضر؟! ماذا تعني بذلك؟

بتواضع مستسلمًا لبلاهة السائل:

- أعني أنه عصر عباسي متواصل ومستمر، طويل كعمر السلحفاة، بلع ريقه وتابع: أزيدك علمًا، أن القيصر لم يمت كما قلت مذ قليل وتوهم للعالم!

كمن يئن من اليأس:

- ماذا... لم يمت؟! كيف ذلك؟ قلت لك رأيته عبر وسائل الإعلام يشنق بحبل غليظ كحبل مرساة السفن، ثم معلقًا والحياة قد فارقته دون رجعة...

أراد أن يستمر شارحًا، فتدخل الصبي محتدًا:

- لم يكن هو القيصر الحقيقي الذي شنق، إنه شبيهه، لقد كان الكايزر ابن زانية، يعرف نفسه، ويعرف أنه سيعمر كأنه يريد أن يصبح أطول من عمر الله، لقد كان- أباد الله نسله- جلادًا متمرسًا حقيرًا، لذا فقيصرنا مازال موجودًا يحكم ولا يمكن له أن يموت إلا بموت الوطن!!

ثم أشار مغتاظًا وبيقين مرعب وهو يتحسس الأرض الواقف عليها:

- لا تقاطعني أرجوك، وأردف: كانوا يفعلون أفعالهم في غرف كاتمة للصوت!!

فقاطعه عبد الخالق مرة أخرى مقأمقأ كدجاجة تبيض:

- غرف كاتمة الصوت!

واستطرد الصبي العجوز كشاعر يتلقى إلهامه من وحي دون أن يعير لتدخله أدنى اهتمام:

- كانوا يعطون الأمان لسجناء الفكر ويقولون لهم بحنية افعلوا ما شئتم، ثم يؤكدون على الكلمة الأخيرة (ما شئتم) على أن لا تقربوا حدود الكايزر، ثم يرسمون على الأرض دائرة تمثل حدوده وكانت والشهادة لله صغيرة بحجم فتحة مؤخرتة تقريبًا ثم يكتبون على حوافها أربعة حروف، من يقرأها يفهم مباشرةً أنها تمثل اتجاهات الكون الأربعة كأنها بوصلة، لكنهم يطمئنونهم وكأن العراقيين أطفال سذج مغتاظون: لا نقصد هنا الكون كله رغم أن طموحنا هو ذاك، لكننا نعني الوطن كله فقط!! ويستطردون بتبجح شيطاني دنيء: هذه هي حدود الكايزر وعليكم عدم التقرب منها، لأنها حدود شرعية ورثها عن جده الخمسين وإلى أبد الآبدين... ويتابعون محتدين كغربان قادمة من الجحيم: ومن يعترض نأخذه هناك...

قاطعه عبد الخالق من جديد مأخوذًا متلهفًا كحديث العهد بالزواج:

- هناك إلى أين؟!

لكن الصبي استمر وكأنه لم يسمعه:

ـ حيث غرف كاتمة للصوت، ويجعلونه ينبطح على بطنه كوضع الرماية، ويمارسون اللواط معه من الفجر وحتى الفجر!

صرخ صاحبنا غير مصدق:

ـ يا مسبب الأسباب، باه... كيف هذا؟!

ـ قلت لك لا تقاطعني، ثم استطرد بحماس متابعًا: ماذا أقول لك؟ كان يقول لا أريد من الشعب شيئًا سوى الطاعة والانحناء والسجود كخدم الملوك! ثم يرد على أمنيته ساخرًا جادًا: وهل هذا كثير عليّ؟! لقد أمر يومًا بهدم دار أكاديمية الفنون الجميلة لأنه قال عنها: دار الفنون القبيحة الداعرة التي تمثل عمل القحبة التي لا تعرف في حياتها إلا من تكرار نفس أدائها! فقرر بمرسوم لم يكتبه، لأنه ما كان يعرف القراءة والكتابة، فألقاه ارتجاليًا وهو يدق على كرشه مثل أنثى الغوريلا كما في كل مرة، فتم هدم الأكاديمية وأمر ببناء وزارة بدلاً عنها أسماها وزارة الهجوم الحربية، التي من أقدس مهامها غدر الصديق في الظهر، ونهب الجار في غيابه، وفض بكارة الصبايا عندما يستحمن ويغتسلن قبيل الصلاة! كما أنه أعطى أوامره بقتل كل الكلاب، لأنه يقول عنها سبب بؤسه وتكدره وأنها تقلقه ساعات راحته، يا الله كل الذين التقوا به أكدوا: كانت تفور منه رائحة مقززة مثل رائحة نهر فائض...

عندها توقف الصبي عن الحديث، سرح في خيال بعيد متجهم، خافضًا بصره نحو الأرض، ارتسمت على محياه صور قاسية أليمة رآها ملطخة بالدماء، فسأله عبد الخالق متوسلاً راجيًا أن يكمل وهما مازالا واقفين في عرض الطريق الجبلي، رفع الطفل العجوز رأسه نحو السماء مهمومًا وقال:

- ماذا أقول؟ لقد كان لثورنا رغبات وهوايات موسوسة، فتارة يطلب قتل الكلاب كما قلت، وأخرى يحرم الغناء وقت العصاري، وفي مرة صرح: أنا أعرف قدري من بقايا قهوتي ومن باطن يدي، سأعيش إلى الأبد، ولا توجد قوة في العالم تمنعني من ممارسة حقي الطبيعي في الحكم والحياة.

وهو يزعق ناهقًا كصيحة قرصان أعور وهو يقصد العراقيون:

- سأرجعكم كما وضعتكم أمهاتكم عراة يا أبناء الحضارة الأولى! لقد أتى على كل شيء كسرب الجراد والإعصار، وفي مرة حلم فيها في قيلولة الظهر وقام من نومه مرعوبًا وخطب فينا صاخبًا كصخب المتزوج في حالة نزوة، وبصوت يشبه صوت الماء الخارج من مجرى محشور: لا تلبسوا في احتفالاتي المئوية غير ثياب الجثث البالية! ويعقب على كلامه قائلاً: لأنكم هكذا تجعلونني أموت من الضحك، وهذا أمر يسليني كثيرًا ويجعل لعابي يفرز أكثر وهو أمر صحي جدًا! ولكن في إحدى خطاباته الطويلة نسى نفسه فيها وأمر برعونة ساحقة كعاداته المزمنة

وفي لحظة طيش وما أكثر سنوات طيشه بقلع عقارب ساعات العراق كلها - العاملة والعاطلة- فضاع علينا الحس بالوقت وصعب على العراقيين من حساب الزمن وبعد فترة - الشيطان لا يعلم مدتها- شعر الكايزر الضرورة ومبرر وجودنا في الحياة - كما يدعي - وهو منبطح على بطنه يضرط وبحضور خمس من عشيقاته السريات اللاتي كن يجلسن على بدنه الممدود كما تجلس الحروف الأربعة في البوصلة، والخامسة بعجيزتها العارية على ظهره كنوع من أنواع التدليك التايلندي... قلت شعر ابن الزانية الذي لا يريد أن يصدق على أنه ابن زانية أن الساعات هكذا وهن عاريات دون عقارب تتحرك مملة! فأمر بقطع رأس كل من نفذ قراره الخائب وأعطى إيعازه بتعليق وترجيع عقارب الثواني فقط إلى الساعات مجددًا كي تبدو الأخيرات أجمل، وللتاريخ والحقيقة لله كان هذا أول وأخر أمر رئاسي يصدره الكايزر ثم يتراجع فيه، متابعًا ناهقًا وهو على بطنه منبطحًا وعشيقته الخامسة عارية بعجيزتها الكبيرة تتحرك لاستكمال مراسم التدليك، وهو في حالة سكر شديد في شبه غيبوبة: على شرط أن تجعلوا عقارب الثواني تسير إلى الوراء كالساعات البفارية، وأن لا تتقدم لأنني الوحيد على أرض الوطن من يحق له التقدم! فغرق العراق منذ لحظتها بفراغ زمني مروع هائل مخيف مغلق ومتوتر، وكأننا نعيش بلا جاذبية على الأرض ولم نعد نعرف كم استمر القيصر في حكمه... فنهب زمن العراق

وأصبح مثل حفرة كبيرة كجبل في الظلام، لصعوبة تحديد أو حساب الزمن... فلم يعد يعرف زمن حكم القيصر وهل هي فترة واقعة بين ولادته الثانية أو العاشرة أو إلى جحيم الآبدين؟! ولأنه كذلك قال يومًا متبجحًا مختالاً كالطاووس في لحظات تجليه وغطرسته كافرًا: أنا رب والرب لا يموت!!

ثم انحدرت من محجري الصبي دمعة كبيرة طالما رآها جامدة في مكانها لا تريد أن تنزلق أو تعبر عن نفسها، لكنها سقطت فشربها وهي ملتهبة كقطرة بول حارة... وفي هذه اللحظة سمعا صوتًا من بعيد ينادي على الصبي ويقول بنبرة مهزوزة كمن يشعر بالحمى:

- أين أنت يا بني؟ وماذا تفعل عندك؟! ها... ومن هذا الذي يقف بجانبك؟

فسأله عبد الخالق مندهشًا:

- ومن يكون هذا؟

- إنه أبي.

- ماذا؟ أبوك!

- نعم.

- لكنه يبدو أصغر منك، وسنه لا يتعدى الخامسة!

- عليك أن تصدقني، القيصر لا يريد أي مخلوق أكبر منه، فجعل الرجال صغار، وأبي أحد هؤلاء الضحايا... وهو يشير له بأصبعه الغليظة اللعينة التي تشبه النقانق المشوية، انظر إليه، إنه تجاوز التسعين وهو على هذا الحال!

وما أن غادره الصبي ملبيًا نداء ورجاء أبيه حتى أخذ معه قلب عبد الخالق دون أن يجعله يعلم، بعدها تردد على مسامعه صوت مدوي في آفاق الجبل مرتدًا كصدى زئير الأسود الغاضبة:

- لقد تناسى الكايزر الرهيب: إذا كان زمن حياته على الأرض لن يكفيه، فإن الخلود لن يكفيه أيضًا؛ شوى الله عظامه على القار... وانتهى الصدى مرددًا: متى تهنأ حياتنا التعسة؟! متى...؟!.

أطرق عبد الخالق مفكرًا خافضًا رأسه على صدره مثل المشنوق، بكى بصمت مهموم مثل الشموع وهي تذوب محترقة، وهذا كان أخر عهد لقائه بالطفل العراقي العجوز؛ حيث ما إن اختفى الصبي وراء الجبل كالضباب والسراب، وما إن سمع الصدى المدوي، سرح طويلاً ولم ينطق بشيء، شعر برغبة جامحة تدفعه دون إرادة للذهاب خلفه، وعلى أقل تقدير لاسترداد قلبه الذي تركه عنده، ثم بلا شعور مشى على غير هدى، سار وكان على يقين أن مسيره صائبًا ويد خفية تدفعه للتقدم والبحث

خلف الجبل، حيث الفراغ الموحش الذي أشار له الطفل من قبل...

أثناء سيره شعر بضيق تنفسه، جاءته النوبة الصدرية، ارتجف مثل شبح بلباس أسود، أزرق وجهه، اختنق، ترنح، سقط، قام، مشى، تراجع، تقدم، واصل، وصل، مات، عاش، مات ولم يعرف له فيما بعد من أثر ولم يسمع عنه خبر... وكل الذي قيل عنه: انتحر، وقيل إن آخرين شاهدوه يلتقي بعائلة الصبي خلف الجبل، لكن أكثر من هذا لا أحد يعرف أو يجزم بقول أو قسم ولا حتى كاتب القصة... وبات العراقي يعيش على الوقار والكبرياء كالميت في مجاهل ومتاهات الغربة حول العالم، وعلى حلم يشبه معالم الخلود الذي لا يمكن الوصول إليه إلا بالمرور عبر طريق الموت أولاً!!

لقاء مع مسؤول مندائي

حتى من لا تعجبه صلاتنا ، بلا نفاق، أقول:

سأعرض قصتي بعد أن أتوكل على الله وعلى نفسي؛ لأن الكثير من أبناء طائفتي لا يمكن الاعتماد عليهم إلا في الضحك وهزّ الرؤوس مع التفنن في تدنيس وتدمير الحاضر!! ولأننا قوم نموت ونحيا في الماضي؛ والحاضر أو المستقبل لا وجود لهما في حياتنا ، تلك التي لا نعرف فيها غير العفة الخالصة! لهذا السبب بالذات لا أريد أن أتمادى في قصتي اللعينة هذه أكثر، كي لا تهتز ضمائرنا الغافية والنقية في داخلنا مثل رؤوسنا ونحن نجامل الآخرين في همومهم ونشاطرهم أتراحهم وأفراحهم بمصداقية قلّ نظيرها ومثيلها في باقي الأمم والشعوب!!

لم يتجرأ الظلام أن يلتحف الأشياء إلا بعد أن انسحبت الشمس وتركته يفعل ما يشاء... فغطى الأرض وما عليها بلونه الداكن المعتاد، وبدت النجوم كعيون الذئاب بسمائها تلمع، هبَّ نسيم الهواء صافيًا وعليلاً مثل روح نقية هائمة في الفردوس...

بعد تردد وطوال انتظار التقيته في إحدى مقاهي المدينة التي نقيم فيها مغتربين؛ اتخذنا ركنًا هادئًا منزويًا وكأننا نتآمر بعيدًا عن

الأنظار، وقبل أن أطلب له شيئًا يشربه، باغتني بقوله الذي وقع بين الرجاء والأمر وبزهو لم يعرفه سليمان في أوج مجده وهو يضع أصابع يديه العارية على الطاولة:

- عدني بأن لا تنشر اسمي الصريح ولا صورتي وإلا قتلتك حرقًا ثم أقدمك هدية للشيطان، ضحك وهو يردد متابعًا: يكفي ما يحصل لي وما سأقوله لك...

أجبته مندهشًا:

- لكَ ما تطلب... وأردفت بحسم: أعدك.

جلس فنجانا القهوة التركية المُرّة على الطاولة أمامنا كحجرين صامتين، وبقايا القهوة اتخذت خطوطًا سوداء داكنة كيفما اتفق على حافتيهما مثل تسلق وانتشار الأرضة على حائط رطب. فتحت دفتري العتيق المليء بالملاحظات والسطور المكتوبة والمشطوبة ووقفت عند صفحة كنت قد دونت فيها أسئلتي التي تؤرقني وسألته بصوت يفيض مرارة وحسرة:

- ما هو عملك بالضبط في المؤسسات المندائية المدنية؟

بوجه مشتعل بالحماس:

- مسؤول عن الثقافة والفن.

- ما الذي قدمته خلال فترة عملك؟

- الكثير...

ثم استرسل كمن أعماه الحب بالحديث فاضحًا ما قدمه:

- أبعدنا المثقفين عن ساحاتهم المعتادة... حيث الخطورة لا تجدها إلا من العقول المتفتحة والنيرة، لم نشجع الكُتّاب والمبدعين على طباعة بحوثهم ودراساتهم وآدابهم ولا نحبذها! لأنها تكلفنا الكثير - الغالي والنفيس- وكما تعلم فنقودنا ليست لنا، أسف، أقصد ليست لمثل هذه الأشياء التافهة غير المهمة، كذلك لم نكافئ أحد؛ لأننا لو فعلنا ذلك لفتحنا علينا باب جهنم، فالكل يريد ويطلب منا أن نكافئه، سوف لن ننتهي حتى بعد مماتنا، لذلك لا نكافئ المبدعين! لم نفتح مدارس منظمة في بلدان المهجر لتعليم اللغة العربية ولا المندائية لأننا لا نفكر بأولادنا بل بكبارنا وهذا هو هدفنا؛ حيث الكبار هم عماد حياتنا وهم الذين يصوتون لنا ساعة انتخابنا! علينا أن نكون عمليين ومنطقيين، لذلك شجعنا على بناء مجالس مندائية في كل العالم دون ربطها بدستور واحد يأخذ أوامره من مركز الحكم في بغداد، وبذلك تقع وتطوف على السطح مشاكل لا حصر لها... ونحن من يتدخل لحلها وهكذا نبقى مطلوبين في السوق!

وقبل أن يتم كلامه الفاضح الصريح، قاطعته متأففًا سائلاً:

- عذرًا، أريد أن أعرف لماذا تفعلون كل ما هو عكس طبيعة الأشياء؟ لماذا لم تواكبوا نهج العالم المتحضر الجديد؟ وبالتحديد اذكر لي ما قدمتموه للمبدعين من أبناء جلدتنا؟

ثم برنة تحمل نبرة غضب وأنا أطلق زفرة حارة:

- لماذا تعطون الآذان الصماء لمن يطرح رأيه؟ لماذا تفضلون الصمت على الإجابة؟ هذا بالضبط ما أريد أن أعرفه ويعرفه غيري كذلك...

أجاب مغتبطًا بأسئلتي، فأزعجني ذلك كثيرًا، تحملت سلوكه على مضض، وصاح صادحًا مهللاً وكأنه في حفلة عرس ابنه:

- لماذا لا تطلب لي فنجانًا آخر من القهوة؟ هذا هو المهم الآن وليست أسئلتك!

أشرت لنادل المقهى أن يرفع الفنجانين الفارغة ليأتي بآخرين وأنا أدس قدمي في ظل الطاولة الميت أو النائم تحتها بحركة لا إرادية، عاقدًا أصابع يدي على جبهتي، ثم استمعت لصاحبنا المتغطرس وهو يهم بالإجابة دون محاذير عابسًا يزم شفتيه بتمرد:

- الحقيقة أنك أتيت على المفيد، أعني الصمت نفضله لأنه يقربنا من الصديق والعدو، نرضي الرب ونتعامل مع الشيطان في نفس الوقت، والأخير نحتاج معونته كثيرًا في معاملاتنا اليومية ولا نستطيع التخلي عنه! وبهذا يجعلنا نتاجر ونلعب بالبيض والحجر ونرقص على كل الحبال، معذرةً، أقصد على كل المستويات؛ وإذا صادف وطلب رأينا، نجيب عن شيء عام لا يمت للسؤال بأي خصوصية وهذه سياسة لا تعرفها!

(قلت في نفسي أسرها، ولا أريد أن أعرفها)، وتابع بعد أن شرب جرعة كبيرة بصوت مسموع من القهوة التي كان يتطاير منها البخار كخيط من الضباب:

- ما أريد أن أقوله هو: كنا دائمًا بجانب المبدعين، كيف؟ أقول لكَ: نضحك في وجوههم، نطبطب على أكتافهم، نجاملهم بالكلمة طبعًا، وفي أحيان كثيرة نصفق لهم بكلتا يدينا، ترى ماذا تريدون أكثر من هذا؟ ثم تسألني ماذا قدمنا لهم؟! كيف هذا بحق السماء! اسمع... خذ مثلاً: لم نستضف يومًا مبدعينا في أمسياتنا الثقافية، واكتفينا بأصدقاء الطائفة، وجعلنا أبنائنا الفنانين مستمعين وفي الصف الأخير يشاهدون ولا يشاركون، وهذا أفضل لهم لخوفنا عليهم من المواجهة ونشر الوعي والظهور بالمظهر اللائق الذي نفتخر به!!

وتابع ساعلاً وعيناه تلمعان:

- يا حبيبي... نحن ملة كلنا رؤوساء ولا نريد أو نقبل إلا بمن يخدمنا، والأخير لا نرضى بأفعاله الخيرة إلا على مضض... أطال الله أعمارنا وجعلنا قدوة لباقي الأمم في الحنكة والكلام والنقد اللاذع الجارح القاصف، وصاح دون مناسبة: ما أحلانا! ثم تابع منصهرًا بلا تماسك شائطًا: نحن قوم لا نملك خطة محكمة لمشاكلنا ولا لواقعنا المتردي الذي لا يسر العدو ولا الصديق، انظر إلى انسلاخ أبنائنا وخروجهم عن دينهم، حالات الطلاق المتزايدة، حتى إني سمعت بأن هناك شيخًا قام بهذا

الفعل! ولا تنس بأننا وراء رفع أجور الصباغة للمتزوجين الجدد عندما يتعمدون، وحثنا الدائم للشيوخ على فعل ذلك.

وسألني مباغتًا:

- وهل كل يوم يستطيع المندائي أن يتزوج؟ اسمع ... حسنًا... وقبل أن أنسى أريد أن أضيف شيئًا مهمًا قد غاب عن ذهني: حيث إننا لا نقّيم ولا نكرم مبدعينا إلا بعد رحيلهم وذياع صيتهم من قبل الغير! لأننا يا رجل لا نريد تدليلهم، لو فعلنا ذلك سيفسدون وبالغرور يصابون...

ثم أكمل صائحًا:

- لماذا تجعلني أتكلم وأقول ما لا أريد البوح به؟! سامحك الله وعفا عنك في الدنيا فقط، أما الآخرة فلا أعطيك أي تعهد بذلك، وربما أرجو لك العذاب الشديد العسير لأن أسئلتك أحرجتني!

وضحك مجددًا كعربيد استخف به الشبق... وأردف مثارًا:

- نحن قوم محافظون نهتم بالكبرياء ونرعى الغرور حتى بات أغلبنا منتفخًا بالعظمة، ويكاد صدره ينفجر مثل بالونة مملوءة بالهواء، هل تسمع، مثل بالونة مملوءة بالهواء! مازلنا نعيش في الماضي ولا نحب التغيير، أعني لا نقدر عليه، فحمله ثقيل جدًا، وكل ما هو جديد يكون مرفوضًا ومنبوذًا حتى لو كان من صالح الرعية، فلماذا تطلب منا أن نغامر؟ ها... ومن ثم حافظنا وهذا هو المهم على دمائنا كي لا تختلط مع دماء باقي الملل من البشر،

فبقيت صافية ونقية مثل قطرة الندى... وهل هذا قليل؟ أسألك وهو يرفع درجة صوته: هل هذا قليل؟!

تابع بعد وقفة ابتلع فيها ريقه الذي نشف، وصاح مجددًا دون سبب وجيه وكأنه ينادي أحدهم عن بعد:

- أسالك أنت.

فقاطعته مستغربًا:

- أنا!!

أجاب بسعادة وزهو:

- نعم أنت، وتابع برنة فهمتها خبيثة: قل لي سقاك الله رحيق الجنة: ألم تطبع في دار مصرية كتابين منذ مدة؟

- بلى، حصل.

- إذن تعترف بذلك (ولم أجد ترابطًا في قوله) واستطرد: هل حاولت أنا الاتصال بك أو طلبت منك استفسارًا أو رأيًا أو شيئًا يتعلق بهذا الموضوع الذي تراه أنت مهمًا؟!

- الحقيقة، كلا.

- أنا لا أريد إلا أن أثبت لك صحة ادعاءاتي، انظر... أنار الله قلبك، كم من الأخوة والأخوات ممن اتصلوا بك بغية مساعدتهم لطبع كتبهم في نفس الدار التي تعاملت معها؟

بدأت أفهم ما يرمي إليه، وأجبته بصدق وبصوت أثقله العجز:

- اثنان من ألمانيا والثالث مقيم في هولندا.

- ترى لو قمنا نحن كمؤسسة رسمية ترعى الثقافة والفن بمخاطبة تلك الدار وبرم عقد تعاون فيما بيننا، ألا يكون ذلك أجدر وأفضل وأرخص، بدلاً مما لو قمت أنت بتوثيق تلك العلاقات بين أبناء طائفتنا والدار المعنية؟!

قلت متبرمًا:

- ما تقوله صحيح، عشرة على عشرة، ولكن لماذا لم تفعل ما تقوله؟ أعني، ما الذي يمنعك؟!

- سنرجع للنقطة التي وقفنا عندها قبل قليل... سأعيد عليك ما قلته إذًا: لأننا لا نريد أن ندللكم، ولا أن نفسد تربيتكم إن صح التعبير، فتركناكم تفعلون ما تريدون دون إزعاجكم... أليس هذا أفضل من لو تدخلنا؟!

ثم تابع منشرح الصدر شارحًا الوضع المندائي الحالي ببرود القتلة:

- أقسم بديني وأعترف أمامك بأننا في تناقص مستمر، ولغتنا العربية تُحكى ولا تكتب، وأولادنا لا يعرفون عن عراق أبائهم وأجدادهم شيئًا، فكيف تقنعهم بمندائيتنا؟ كن واقعيًا، بل منطقيًا، إذ وكما أرى سوف لن نستمر إذا بقي الحال كما هو عليه... ولكن الأمر يقع على عاتق المسؤولين...

ولم أجعله يكمل وقاطعته مجددًا بحدة:

- ولكن أنت أحد هؤلاء المسؤولين وباعترافك مذ قيل، خاصة وأنت تمثل رأس الثقافة والفن؟!

أجاب منكود الحظ والفطنة صاحبنا متظاهرًا بالدهشة وكأنه يريد حصد الريح:

- أنا!!

- نعم أنت ومن يكون غيرك... لماذا ترمي الكرة في الطرف الآخر وهي بحوزتك؟!

- إيه، حسنًا، اسمع... ببساطة (وهو يتكلف الرقة مجازفًا) لأنني لا أريد أن أتحمل المسؤولية رغم مسؤوليتي الأخلاقية والقانونية تجاهكم!

- هكذا إذًا... الكل يتبرأ ساعة الجد؟

نبر متصنعًا الوقار وينظر حوله كمن يبحث عن مهرب:

- أنا رجل أؤمن بالحرية والديمقراطية، أتحدث عن نفسي فقط وأترك المجال للآخرين في الرد والتعقيب، لذلك قلت ما أراه أنا!!

ثم فجأة نهض وصاح وكأنه مغلوب على أمره:

- عليّ أن أرحل الآن... فعندي موعد لاجتماع مهم مع رئيسي في العمل المدني... هناك واجب إنساني علينا التباحث حوله وأتوقع رفضه.

ودون أن يقدم لي كلمة أخرى زم شفتيه، قرَّب ما بين حاجبيه وأعطاني ظهره... واختفى سريعًا مثل هارب من سجنه...

جلست مذهولاً حزينًا بعينين باكيتين بمفردي، ودفتري ينظر لي وكأنه يواسيني لما سمعت، همست محدثًا نفسي بصوت خفيض: لا تتعجلوا... فعدالة الرب قادمة، هكذا قالها نبينا يحيى مبارك اسمه، كلماته التي كانت لا تفهم ولا تقرأ إلا بالقلوب، لأنه خاطب الروح التي هي سبب أوجاع الجسد، ومن يريد أن يبرأ عليه أن يبدأ بروحه... ثم رددت على مسامعي قول الكاتب اليوناني العظيم نيكوس كازانتزاكيس في إحدى رواياته واصفًا العالم:

(العالم طلسم... ما أشد غموضه... يعجز المرء عن أن يميز الشيطان الرجيم من الرب الرحيم، كثيرًا ما يتشابهان... استغفرك ربي)

آه... نسيت أن أصفه، اللعنة على الذاكرة...

انحنيت على الطاولة كشجرة أحنتها الرياح وكتبت:

"أقسم بالعلي القدير... كان صاحبنا المسؤول بدينًا، بشاربين قُصرا منذ فترة قصيرة، فبانا كحشيش مقصوص للتو، أصفر الشفتين، شاحب الوجه، مترهل الوجنات وجلده طافح بالنتوءات مثل جلد الأخطبوط، وكان عندما يتحدث تمسكه العبرات ثم يكظمها مقهورًا كممثل محترف، يسرح عندما تحدثه وكأنه كبش شارد، وحين ينفعل يظهر صوته فائضًا مفتونًا وثقيلاً... لقد كان -

أخزاه الشيطان- محنكًا في الحديث، لا يفهم في الأصول، لا يكترث للكوارث، ويرق قلبه للأحداث التي لا تعتبر أحداثًا... أضرم الشيطان النار في قلبه وجعله يدور ويخور كما يخور العجل... ابتلاه الله بالجذام الذي لا يبرأ منه اليوم قبل الغد، ولتكن الجحيم مثواه الأخير".

ثم رقَّ قلبي له فقلت مبتهلاً: "ربي... كثيرًا ما نفعل الخير بدافع الخوف، نستظل به لنمارس الشر، وما تنطق به شهواتنا الدفينة التي تغرينا بسحر لا يقاوم، نقوم بكل ذلك دون رادع ثم نموت ونحن كرماء طيبون وأصحاب فضل وفضيلة ولكننا لا نخدع هنا إلا أنفسنا وأنت العليم... وتابعت بخضوع مناديًا وكأني أهذي: ربي امنح صاحبنا المسؤول التعيس الذي يثير الرثاء العزاء، وهب له الشفاء، وانفخ في روحه الصفاء، وأن تهديه وعن جهله يثوب أو يتوب... أنت الطيب، الحكيم، الهادي الرحيم...".

وناديت متأثرًا كمن نسى نفسه:

"سحقًا... استغفر الله، إن الذئاب لا تأكل بعضها، لكننا على أتم الأستعداد لفعل ذلك! يا للخيبة والعار... يجب أن نعترف بهذا قبل أن يفوت الآوان وينهار البنيان بعد أن اختلط الأمر علينا ولم نعد نعرف إن كنتم أناسًا طيبين رحماء أو أدوارهم تمثلون؟!".

معلم اليوغا

إلى عالمنا الذي لم يبقَ فيه سوى
القليل من الشر وبعض الأشرار!!

كلما أتذكر قصتها أموت من الضحك ساخطًا ومتألمًا... تلك التي فجرت هدوئي بضوضائها وجعلتني أقاسي وقتي قهرًا وأعجن صمتي لوعة وألوك صبري مرارة وأدعو صادقًا أن تذهب إلى مصيبة لا يعلم فيها حتى الشيطان اليقظ المتحفز لفعل الشر دائمًا... وهأنا أروي حكايتها بدقة، كدقة الأعمى وهو يقرأ الحروف البارزة...

انبسط النور على الأرض في صباح كان بلا أسرار قبل أن ألتقي بها، والحقيقة قبل أن تلتقي هي بي؛ كنت أنظر من خلال النافذة المطلة على جبال الألب الساحرة بشموخها الذي يذكرني بشموخ زوجتي في عنادها وإصرارها، أنظر إلى تلك الجبال وأنا أتناول فطوري، وكأني أنظر وأتذكر زوجتي التي غبت عنها طيلة ثلاثة أسابيع في إحدى المعسكرات الصحية، التي فيها أتلقى العلاج ضد مرض التهاب الرئة اللعين الذي ألّم بي دون

إخطاري أو سؤالي، كلحظة صنعي ولادتي وموتي بالتأكيد... وإذا بها تهبط عليّ كالقدر؛ طويلة القامة مثل نهر الجحيم، بشعر أصفر يخفق ويصفق لتبدو كبلزبوت (أميرة الأبالسة في الخرافة الفينيقية)، بملابس مكتظة الواحدة فوق الأخرى كلبس الحمالين؛ فتضع صينيتها التي فيها فطورها... كأنها لم يحلُ الجلوس لها إلا أمامي أنا؟!

أنا الهائم الذي لا يعرف رأسه من قدميه وسط محنة وظروف بالغة القسوة أعيشها ببطء، دون أن أظفر في لحظة أمل أو صفاء أو حتى توافق مع الروح، إذ ما أسألها – الروح- لا أسمع ردها، وهذه التي سقطت على طاولتي مثل القدر... ما أن بدأت تأكل بنهم حتى فتحت فمها بالحديث وفي كل شيء دون انقطاع، قصف الله طولها ودق عظامها، تفهم في كل شيء، فبعد أن أتت على الرياضة وأنهت حديثها الناري القاصف في دوري أبطال أندية أوروبا لكرة القدم، عرجت حيث الطبخ وأنواع الطعام والقيم الغذائية التي يتوجب توفرها لاسترداد صحتنا المنهوبة، حتى أنهت دراستها حول السمك المسلوق الذي وصفته بالسمك السحري! لوي غفار الذنوب رقبتها كما تُلوى الحبال عند صنعها، وما أن أجابت على أكثر أسئلتها بنفسها نوهت برجولة وجدتها تناسب حجم جسمها متابعة:

- إنه اليوم الأول لي هنا، وقادمة من براغ وأسكن حاليًا في برلين، حاصلة على الجنسية الألمانية ولي طاقة تهد هذه الجبال التي لم تنزل عيناك عنها.

(يبدو أنها لاحظت هيامي وسرحاني بنت الملعونة هذه عندما كنت أنظر إلى الجبال)، واستطردت بهمة وجدتها لا تقهر ولا تلين، فولاذية ما شاء الله:

- سوف أكرسها للترفيه عن نفسي وجعلها سعيدة وراضية، وعندما أرجع إلى حياتي السابقة التي جئت منها سوف لن يعرفونني...

ضحكتُ بانفعال لا يتناسب وطقوس الفطور الذي نحن فيه! ثم لعنتها في سري، (من الواضح لم تسجد لله فغيرها من إنسان إلى كابوس)، وأنا أحاول الابتسام لها تارة والعبوس تارةً أخرى، ومنذ تلك اللحظة قررت أن أعاقبها على فعلتها تلك، ثم نسيتها كما هو الحال دائمًا...

حتى ظهرت مرة أخرى في حياتي وأنا كما أنا... حالم لا أبغي سوى الوحدة، ألفُّ وأدور حول مكان صنع ببراعة، مثل مبردات الهواء المائية التي كنا نستعملها في العراق من حيث المبدأ مع تغيير واحد، لا وجود لمحمولة أو مروحة الهواء، وبحجم كبير يصل ارتفاعها ثلاثة عشر مترًا وطولها مائة وثمانية وستون مترًا وكلها من الخشب المرصوف والمقطع بحرفية رائعة من

أغصان بعض الأشجار النادرة، المتواجدة في بيئات جبلية كتلك التي أتواجد فيها لينصب الماء المالح فوقها فيتخلخل ضمن شقوق وفتحات الأغصان والريح القادمة من أعالي الجبال، والمنحدرة نحو السفح الظليل بسعادة وفرح، تدخل بزهو وطيبة من خلال الكتلة الهائلة المرصوفة والمرصوصة بالأغصان، فتخرج باردة ومالحة ونقية إلى درجة تشعر بأنك أمام بحر هائج...

بدلاً من أن أستمتع بالهدوء والوحدة التي ارتضيتها لنفسي... ظهرت تلك القوة الغاشمة التي تقول على نفسها إن لها طاقة تهد هذه الجبال التي نحتمي بحماها، متلهفة ومتعجلة مترجرجة كقربة اللبن، وهي تقول دون استئذان بعد أن فُزعت من وجودها أمامي وهي تضع يدها على كتفي، ولكن بصوت ملحاح كصوت آلة القانون:

- آه... ما أتعسني!!

مأخوذ:

- منْ؟ أنتِ من جديد؟! ثم غيرت مسار قسوتي وقلت: أهلاً، لم ألحظ وجودك...

بنفس مقطوع:

- لا يهم! ثم تابعت بمشقة: لم أعد أتحمل المزيد! لقد تعبت وانقسم وسطي! كنت مخطئة عندما قلت إن لي طاقة تهد الجبال، فما أن بدأ علاجي حتى تيبست عروقي!

ثم سألتني مباغتة كأنها تناست همها أو اشتاقت لطبعها:

- أتعرف ما أعمل؟

مذهول:

- الحقيقة كلا! ثم أضفت بخبث: أقصد، من أين لي أن أعلم؟

- من حقك!! فأنا لم أخبرك، وتابعت بعد أن عكرت وحدتي وشقت صمتي: لي مشاكل عائلية كثيرة لا تعد ولا تحصى، لكنني ورغمًا منها، أضحك!

شعرت أنها أخطأت بتعبيرها الذي لا يتناسب وسياق الكلام الطبيعي لشخص سوي، فقالت:

- أعني، لا أهتم كثيرًا، أعيش حياتي مثلما أريد وكما ترى أمارس الرياضة، أتنزه وألتقي بمن أحب!

ثم سألتني دون شعور:

- لم تقل لي ماذا تفعل أنت؟

برنة راخية:

- لم أفهم!!

بتأثر مستطارة اللب:

- آه... هكذا دائمًا أنا لا أقول كل ما أريده! أردت أن أسألك عن عملك!!

همست في نفسي:"مضحكة بصورة غامضة مثل برغوث، بل أقل منه شأنًا!" ثم وبدون تفكير قلت:

- معلم يوغا!

أفزعتني بلا ريب وهي تردد:
- يا للروعة!!

ثم قفزت مغالية في دهشتها مثل شخص غريب الأطوار أو منفصم الشخصية، وهي تضرب الأرض بقدميها الكبيرتين التي تشبهان قدمي عملاق، واستطردت بتفاهة:
- كم أحب أن أمارس هذه الرياضة الرائعة، فمنذ طفولتي البريئة وأنا أتوق لفعل هذا الشيء الذي يسمونه اليوغا!

وإذا بها تشدني من يدي بقوة وتركع أمامي بشكل مسرحي مثير للسخرية والرثاء وكأنها تمسك بأذيال صنم تعبده، وتقول بحبكة بائسة:
- حقق لي أمنيتي أرجوك، سأعطيك كل ما تأمر به، لا تكسر خاطري! أريد أن أمارس اليوغا، هيا عدني أنك ستفعل هذا؟ عدني...

لم أعرف بماذا أجيب، لقد كانت طريقتها وعرضها المسرحي يبهر كالفجر ومواسي كالليل، وأنا أجدها راكعة متوسلة أمامي... أنهضتها منفعلاً وقلت في سري: "يا لها من امرأة غريبة تستمد البهجة من البغضاء"... وفجأة ودون وعي وبحنية تفوق الوصف وكأني أتحدث إلى مريض قلت لها جادًا متقمصًا روح الحكيم:
- اليوم الساعة الرابعة عصرًا، انتظريني في غرفتك ولا تخرجي منها حتى أتي وأعطيك أولى الدروس.

لم أسألها عن رقم غرفتها... تركتها كما هي غير مصدقة سمعها وهربتُ دون أن ألتفت ورائي...

همت مجددًا في رحاب أخرى ليس لي علم بها، بين القراءة والمشاهدة والكتابة، وما أن حانت الساعة الرابعة عصرًا حتى كنت أجلس في أول صف من مسرح الأوبرا بعد أن كنت قد حجزت مقعدًا هناك من قبل، وضعت في عالم موسيقى موزارت كطفل وسط ألعابه، لا نسمع له صوت... ونسيت ساعتها كل ما هو خارج هذا العالم المسحور كشخص غائب عن الوعي...

في اليوم التالي وفيما كنت أسير نازلاً متعجلاً للذهاب إلى إحدى غرف العلاج الطبيعي، قابلتني تلك المنتفخة بالغرور والكبرياء على السلم فوقفت قبالتي كالصنم، ويديها على صدرها مصلوبتان وهمست معاتبة بلهجة ما بين الغضب والحماسة:

- لماذا لم تأتِ في الأمس؟ وأردفت تحاسبني كأنها جدتي: جعلتني أنتظر ثلاثة أرباع اليوم في غرفتي كالسجينة، محبوسة بين أربعة جدران لا أعرف أين أنت وماذا تفعل!

قاطعتها بصدق متناه:

- وهل كان بيننا موعد مسبق؟!

كملاكم في أوج غضبه:

- ماذا تقول؟ هل كان هناك موعدًا! ومن قال لي الساعة الرابعة عصرًا؟ هل خرج أبي من قبره وقال لي ذلك؟

- أنا ضربت لكِ موعدًا، متى؟

- عجبًا! في الأمس، هناك... عند ذاك الشيء الكبير الضخم الذي يشبه أبو الهول وهو يبول! ألا تذكر؟

- الحقيقة لا أذكر شيئًا، وليس لي سبب أنكر فيه أو أكذب من أجله، ومع ذلك قولي لي بالضبط ما عليّ أن أفعله وسأفعله من أجلكِ بسرور.

بعد أن شعرت أني قد تأخرت على جلسة علاجي، وبالتأكيد نادوا غيري، قلت بلهجة اتسمت بالحدة:

- لماذا ضربتُ لكِ موعدًا؟

باستغراب:

- من أجل أن تعلمني اليوغا.

- اليوغا!

- نعم، أنت قلت، وقلت إنك معلم لليوغا وستعلمني إياها وأقسمت على ذلك... لماذا تنكر؟

وإذا بكيلي يطوف ويطفح... فحدجتها بنظرة ارتجفت أطرافها الطويلة منها صارخًا:

- اسمعيني يا ابنة ملك الجحيم وتذكري كلامي هذا الذي سأقوله جيدًا: أنا لست بمعلم لليوغا، ولا أعرف غير اسمها، بل لا أمقت في حياتي مثلها، فأنا من نسل الجوازء والمعروف عنه بأنه يحب السفر والحركة ولا يستطيع البقاء في مكان أكثر من عشر دقائق... لذلك فاليوغا هي عكس طبعي الذي جبلني الله عليه، هذا من جانب، من جانب آخر وجهكِ يوحي إليَّ المجاعة، ويشجع

على الضحك، ويمسك على الكلام، وكأنكِ ولدت وأنتِ مدانة أو مصنوعة من الحسرات، وفضولك الطاغي ومحاولة التطرف والتلصص وإزعاج الآخرين دون وجه حق أو سابق معرفة أمر مخزٍ، مرفوض، لا تقره السماء ولا شريعة الأرض، لذلك أحببت أن أعطيك درسًا لا تنسينه، يساعدك ولا يضرك والآن سأقول لكِ كلمة أخيرة: عندما قلت لكِ إنني معلم يوغا، كانت مجرد كلمة خطرت لحظتها على بالي دون إدراك أو تفكير، ولو خطرت لي كلمة أخرى كأن تكون حداد، لقلت لك حداد، لأنني لا أريد أن أقول شيئًا لا أحب النطق أو التصريح فيه... هل فهمتي؟! وسأسركِ شيئًا آخر، أنا أكتب القصة القصيرة، وسأكتب حكايتك قصة... وهذا وعد أقطعه صادقًا على نفسي.

ثم تركتها راجعًا إلى غرفتي، متكدرًا، متعبًا دون علاج.

معلم التاريـــخ

سار "ستَّار" مبتعدًا عن صفه الذي يدرس فيه، بخُطى واثقة، بطيئة ومدروسة كمن يمشي في جنازة، في الممر الضيق المؤدي إلى غرفة معاون مدير مدرسة الانتفاضة الابتدائية، في صباح كانت فيه الشمس الحارقة سيدة الكون دون منازع، وستار بملابسه العتيقة الرخيصة، التي لا تعبر عن زمن ارتدائها وألوانها التي لم تعرف حقيقتها لقدمها.

كانت الحياة في منتصف السبعينات مزيجًا من الفقر والجوع والجهل العام، المهيمن على صحة ونفوس العراقيين، والظلم والقهر القابع في القلوب، المعجون بالقمع والقسوة لكل من يقول أو يتفوه بكلمة لا تريد الحكومة - عذرًا - أقصد العصابة الحاكمة وقتذاك سماعها...

كان ستار ابن المرحوم ماهر، الذي كان يمتهن الحدادة، والمعروف بسمعته الطيبة، كفقره، لم يتجاوز ستار الثانية عشرة من العمر، نحيف الجسم، كفتيل قنديل مستعمل، وسمرته الداكنة أعطته مسحة من الحزن، أضيفت إلى رصيده الشخصي في التعاسة والفقر، قليل الخبرة، ضعيف الشخصية، كأي طفل عراقي في وقته وسنه، يتابع سيره باتجاه غرفة المعاون الذي

يتأمل فيه خيرًا وعونًا... في خلده كانت أمنية وجدها سهلة التحقيق، وأثناء سيره، لم يكن يفكر إلا بالساعات التي سيقضيها بعد أن يوافق معاون المدرسة على ما يفكر فيه، أو السبب الذي دعاه، ومن أجله يريد لقاءه والمثول بين يديه...

في طريقه بالممر الطويل الذي يفصل صفه بغرفة المعاون، التقى معلم التاريخ "الأستاذ خلف" ذلك الشاب الرزين الرياضي، ذو الكفين والكتفين العريضين وكأنهما يعودان إلى خباز أو سباح، حليق الوجه، قصير الشعر، بعينين غير مرحتين كعيني ثور صغير، وأنفه يشبه أنف الصقر وقد انسد منخاراه بشعر كثيف أسود فظهر نافرًا متملصًا متلصصًا ومتدليًا من أنفه كالأسلاك السائبة، بصوته المبحوح المجروح العالي، الذي يرن ويصدح في الآفاق كلما تحدث ويجلس، في أصبعه الثالث من يده اليسرى خاتم ذهب كبير يخطف البصر يلمع؛ فسأل ستار بسرعة وبأسلوب لين أقرب إلى الإغراء والترغيب بعد أن أجبره على التوقف:

- لماذا أنت هنا؟ ثم عدل من صيغة سؤاله مضيقًا: أقصد لماذا تركت صفك في هذا الوقت المبكر من الصباح؟

بنبرة مسحوقة كالنجوى:

- معذرة أستاذ، جئت بغية رؤية السيد المعاون في أمر يخصني!

كأحد زبانية جهنم، بعدم اقتناع ممتقعًا:

- ماذا؟ وتقول أمر يخصك وأمامي! هكذا، بكل علانية ووقاحة!

نكس رأسه بخوف ووجل ويهز رأسه علامة الإحباط:

- أنا أسف يا أستاذ!

بانفعال أبعد عن العقل وبصوت أقرب إلى التهديد جعجع:

- أسف... على ماذا؟!

حرك يده مخذولاً بقهر بالهواء دليل الحيرة والاتباك:

- لا أعرف! لكنني... أنا... أقصد، جئت لمقابلة السيد المعاون!

- وماذا بعد؟ وعيناه متوهجتان بالغضب والحنق.

- قبل فترة شاركنا في حملة عمل شعبي كما تعلم، وكنت أنا من ضمن الطلبة الذين ساعدوا في بناء مدرسة أبو منصور الابتدائية، حتى إنك كنت الأستاذ المشرف على الحملة...

قال ذلك ستار كله مندفعًا وكأنه بهذا الحديث مختنق، فارتاح بعد أن باح ما في خلده وصمت.

- وما دخل ما قلته برغبتك في لقاء السيد معاون المدير؟!

قال مهتاجًا:

- المسألة... أعني، لا أستطيع أن أقول لك لماذا! أرجو عفوك...

- إن لم تقل لي لماذا، سوف لن أجعلك تقابله!

احتار ستار في أمره، نظر له ثم إلى الأرض مرتبكًا ورد بحذر:

- جئت لأطلب لنفسي إجازة من المدرسة لهذا اليوم!

خرج الأستاذ عن طوره، صرخ به مزمجرًا بجنون وكأنه مس كرامته:

- إجازة!!

- نعم، لأنني وعدت أمي بذلك.

بدهشة وصلت حد الإنكار:

- أمك! ثم أردف بقسوة أقرب إلى الأذى: هل تريد أن تضحك عليّ يا ولد؟ ما دخل أمك في شؤون المدرسة ونظامها؟

تردد ستار قبل أن يجيب بعد فترة ثقيلة من الصمت، ناح بهمس:

- لذلك قلت لك أريد رؤية السيد المعاون شخصيًا!

زاد رد ستار غضب الأستاذ...

- لقد زادت وقاحتك وتعدت حدودها، لا يمكن السكوت عليك بعد الآن أبدًا! ثم تابع مندفعًا: لن أسمح لكَ بمقابلة السيد المعاون، وعليك أن تعرف أن المدرسة لها قوانينها وحرمتها، لذلك يجب أن تقول لي لماذا تريد مقابلته؟

اهتز بدن ستار خوفًا، تلكأ بالرد ثم أجاب مقتضبًا:

- الحقيقة يا أستاذ أن أمي بحاجة لمن يساعدها في ترميم سطح البيت الذي نسكه، حيث كلما أمطرت السماء غرقت غرفنا، لذلك ترجتني بمساعدتها لإصلاح السطح مع أخي الكبير، اعتمادًا على

خبرتي التي جمعتها أثناء عملي في بناء مدرسة أبو منصور كما تعلم... ثم بصوت مخدوش: هذا كل ما في الأمر...

ما أن أنهى كلماته الأخيرة، حتى نزلت على خده صفعة قوية من كف معلم التاريخ الذي فقد أعصابه وهو يستمع إلى تبريرات الطالب ستار بغية حصوله إلى إجازة كي يساعد أمه في ترميم سطح بيتهم، هاج وماج صارخًا به بعد أن أشفى غليله بتلك الصفعة القاسية التي حولت خد ستار إلى قطعة متوهجة، حمراء ملتهبة من اللحم:

ـ أنت يا فتيلة القنديل المحترقة التي لا تقوى حتى على الاشتعال، تريد أن ترفع الطابوق والإسمنت والجص والطين؟ هل تريد أن تغشنا؟ أنت الذي لا يقوى على الوقوف تريد أن تفعل كل ذلك؟ يا لك من طالب مخادع، كاذب وسخيف... ثم صرخ به آمرًا: اذهب إلى صفك وأكمل يومك المدرسي وبعدها اذهب إلى أمك التي تنتظرك يا فتيل القنديل، هيا تحرك ولا تنظر لي هكذا كالأبله...

ذاب ستار بالصمت ولاذ به بعد أن ترقرقت دموعه بلوعة وحرقة على خده الملتهب، وهو يتحرك باتجاه صفه متحطمًا، مقهورًا ومخذولاً... ليس لأنه تلقى صفعة قوية عند الصباح دون ذنب، بل لأن الأستاذ خلف لم يصدقه!

الامتحــان

كانت أجواء بغداد مثقلة بالأحزان والأشجان في منتصف الثمانيات من القرن المنصرم؛ زالت فجأة وتألقت في لحظة حالمة، سرمدية بعيوننا، فوجدناها آسرة، مفعمة بالانشراح وتصدح بالأفراح، وكأننا سننال شهادة البكالوريوس بعدما ننتهي من أداء امتحاننا الموعود هذا؟!

أغلق الدكتور عدنان المحاضر باب القاعة وراءه بعد أن دخل برزانة وهيبة كعادته، مثل نبي وسط أنصاره، وهتف بنا موضحًا بطريقة تجاوزت الرجاء والطلب، لكنها مع ذلك لم تبلغ حد الأمر:

- لا أريد أن أرى شيئًا على الطاولات، فقد أحضرت معي كل ما يلزم للامتحان...

لم تكن أجواء وحياة الجامعة سيئة أو غير جميلة، لكننا كطلبة كنا نخلق المتاعب لأنفسنا وكأننا من نسل إبليس، لا نعرف الحياة إلا بمنغصات، نبتكرها ببراعة وشيطنة وشطارة عجيبة، تصعب

على أبناء السفاحين وأرباب السوابق من الإتيان بمثلها؛ لا أستطيع شرحها أو وصفها بالكلمات التي أعرفها...

ما أن وزع علينا أوراق الأسئلة؛ حتى بدأنا نتهامس متبادلين فيما بيننا هواجس الغرور والفوز، وننشر الابتسامات بأريحية في القاعة كالعطر، كأننا طلبة جادون غير عابثين ولا نريد أن نجازف بمستقبلنا، أو أننا نعرف الحلول ونتائجها قبل البدء بإجاباتنا... استغرب الدكتور تصرفاتنا الرصينة المبالغ فيها، والتي لم يعتد عليها طبعًا فينا، وهو يسير أمامنا وبجانبنا ويتابعنا وينظر لنا صامتًا بذهول وحيرة...

كان الدكتور رجلاً معروفًا في الجامعة بنزاهته وحسن مظهره واعتنائه بهندامه، طويل القامة كرجل من أهل الجبل، له وجه طافح بالحيوية، يميل إلى الإحمرار، ويبدو عليه آثار الرفاهية والاستقرار المادي والنفسي بوضوح، بشاربين عريضين متدفقين على شفتيه ويغطيانهما، في وجنته اليمنى شامة كبيرة بنية اللون جميلة، ومما زاد من وقاره رنة صوته الرخيمة الوادعة الرصينة في ذات الوقت، لا يحب التشوف أو التباهي، وليس في حياته من هم، سوى العلم الذي يدرسه لطلابه؛ بالمختصر المفيد: ليس من النوع الذي يتقدم العالم بدفع الأكتاف!

لم نكن ننظر إلى أوراق الأسئلة النائمة المتمددة بصمت أمامنا بجدية، بقدر ما كانت عيوننا تتلصص باحثة، زائغة في أرجاء

وزوايا أخرى لا يعلم فيها سوانا! بخبث وتحدي كبيرين، غير عابئين لوجود الدكتور وسطنا... حتى لاحظ انهماكنا وترددنا وفرحنا غير المسبب والواضح للتفسير، فغيَّر من مشيته وجعلها أقرب إلى التمعن والتدقيق، لمعت عيناه بالفزع وجبهته بالعرق عله يقف على رأس الهواجس التي تتراقص في مخيلته والتي تصرخ به بصمت متسائلة: "شيء ما غير صحيح، وكأنه يشم محاولة غش أو تجاوز أو شيء من هذا القبيل...".

دنا من أحد الطلبة ويدعي عبد الرزاق، ذلك المعتوه الصغير النحيف، الذي تتحزم رقبته دائمًا بذات الربطة الجلدية الرفيعة الحمراء، بطل قصة الشهوة التي كتبتها في وقت سابق! فارتبك الأخير وطغت على ملامحه ثورة الخوف، انقلب لونه وبات وجهه يشبه وجه ميت والدكتور عدنان يقف فوق رأسه بضخامته ورصانته التي يتهيب منها حتى قادة الحرب! وإذا بالدكتور ينحني على الطاولة... فرأى العجب...

لم ينبس عبد الرزاق ببنت شفة، ولم يستطع متابعة امتحانه، تجمدت الدماء في عروقه، وانحبست أنفاسه، فاختنق بعبراته وكاد يصرخ أو يبكي...

لكن الدكتور المحاضر تجاهل ما كان عبد الرزاق يفعله، واستمر بانحنائه وهو يتابع ويقرأ ما كان يرى أمامه بشغف منقطع النظير، وبعد ثوان قليلة صاح بعبد الرزاق بصرامة:

- توقف!!

بقلب مكسور طرطش مخطوفًا:

- ماذا تقصد دكتور؟!

بتحفظ:

- لا تستمر بالكتابة.

ثم خبخب بلهجة آمرة، حازمة:

- تنح جانبًا ودعني أرى ما هو موجود أمامي بشكل واضح.

قال ذلك ووجهه محتقن بسرعة رهيبة بالدماء، بات منظره مخيفًا لنا جميعًا... بعد أن أنهى معاينته بدقة، تلك التي لم تتطلب منه سوى لحظات معدودة، قال لعبد الرزاق مخاطبًا، وبرنة صوت واضحة، حكيمة:

- أطلب منك مغادرة قاعة الامتحان فورًا...

وبطل قصة الشهوة مخنوقًا لا يتحرك... أطاع القرار وهم بالفرار... حتى تدخلت أنا واقفًا حاسمًا الموقف الذي وجدته لا يحسم إلا بهذه الطريقة:

- معذرةً دكتور، لو أردت معاقبة زميلنا بالطرد من قاعة الامتحان، فالحق هو أن نطرد جميعنا لذات السبب!!

ثم لذت بالصمت وجلست مخذولاً وملتهبًا لجرأتي وكشفي سرنا بهذه الطريقة الوقحة المعلنة.

نظر الدكتور لنا، ولي بالتحديد لدقائق دون أن يرد، ثم همَّ بالخروج من القاعة بعصبية وانفعال دون أن يوضح لنا ما سيفعل... ونحن نتبادل الهمسات والنجوى وعبارات الخوف والتوجس مما سيحصل لنا نتيجة فعلتنا، تلك التي جعلنا من سطوح الطاولات، سبورات ملآى بالأجوبة لمادة الامتحان الذي بدا أنه سوف لن ينتهي بخير...

عاد الدكتور بعد دقائق قليلة وهو يشير لنا بسباته وكأنه يلعننا:

- سنغير قاعة الامتحان، وهناك سنكون جميعنا بأمان، ولي معكم فيما بعد حساب عسير...

الصحفي اللامع

يقول الروائي العالمي كولن ولسن في إحدى
رواياته: إذا أدرك الإنسان قوة عقله،
لاستطاع على الفور أن يعرف أن الجريمة
ليست سوى اسم آخر لتدمير الذات!!

تنويه:

أنا شخصيًا "كاتب هذه القصة القصيرة" لو كان لي لسان طويل لقلت رأيي معلنًا أنني لا أوافق على تصرف الأم حيال ابنها وما فعلت به بدافع الحب؛ لأنها جعلت وحيدها "خليل" يفكر بجدية في الانتحار.. هذا ما عرفته منه عندما قابلته في زيارتي الأخيرة عند محل إقامته في الجزيرة السويدية التي يقطنها مع أمه، تلك الجزيرة التي لم أرَ مثل أمطارها قسوة وقوة من قبل، لقد كانت أمطارها الساقطة، يا رحمة الله، كالرماح المسننة وعلى مدار أشهر طويلة من السنة، أبعد الله رماحها، أقصد أمطارها عنا؛ حين كنت أتلقى العلاج الطبيعي ضد مرض الربو اللعين الذي أعاني منه منذ سنوات طوال؛ وخليل بنفسه صرَّح لي بذلك عن

طيب خاطر رأيته مجروحًا... والحرص والأمانة الأدبية هنا هي التي قادتني ودفعتني أن أنوه عنه.

• • • •

في مساء احتله الظلام مبكرًا وأطبق عليه بعتمة حالكة دامسة كظلام الأعمى... لم يقف خليل على لب الأسباب التي أدت به إلى الانحدار السريع كالحجر الساقط من قمة جبل في مجال إبداعه الكتابي في الآونة الأخيرة... انفجر غضبه بعد أن اختمر، فتزلزل داخله عنفًا لا يقل دمار عن زلزال مدينة لشبونة البرتغالية المعروف، وهذا ما جعله يفقد صوابه مرتعدًا منهار الأعصاب، وهو يشعر حيال ما يحدث بالعجز الكامل والحرج الذي يلتف حول رقبته كثعبان طويل ضخم يخنقه، وأن الأرض لم تعد موجودة تحت أقدامه كما كانت من قبل عندما كان يتربع على قمة النجاح متوهجًا كنجمة في السماء!!

كان يسكن في بيت أمه في جزيرة كوت لاند النائية في السويد التي غالبًا ما كانت تلطمها الرياح المالحة من كل جهة وعلى مدار السنة تقريبًا؛ تلك التي اتخذها أبوه وطنًا لهم بعد هجرته من العراق منذ قرابة ربع قرن حتى وفاته فيها بعيدًا عن مسقط رأسه مغتربًا...

كان المنزل واقفًا وحيدًا في ركن معزول على قطعة من الأرض الواسعة والمنبسطة المغطاة بالحشائش الصغيرة؛ الأرض وما عليها ملك أمه بعد وفاة أبيه، وخليل وحيدها، والأخير يقطن في غرفة بالطابق الثاني حيث ينحدر سطحها نحو النافذة التي تدفئها الشمس عند الصباح والمطلة على البحر البعيد الذي غالبًا ما يراه سرابًا ويقول عنه إنه مصدر نبوغه وإلهامه!

على الرغم من أن حظه من الثقافة والإطلاع كان واسعًا لا يستهان به وعقله مثل مقبرة للكتب، أغلبها من جنس الأدب، والكتاب لا يفارقه كصحبة الكلب والعصا للمكفوف؛ وعلى الرغم من معرفته الأكيدة أن الثقافة ليست الكم من المعلومات والخبرات والتجارب وكذلك المثقف ليس هو من يحمل تلك التجارب والخبرات والمعلومات فقط، بل الثقافة هي التحدي والمثقف هو المتحدي هنا... تحدي المجتمع وما يعانيه من تخلف وممارسات خاطئة تزحف بخبث لتدوس على كرامة الإنسان من غير أن يعي الأخير على نفسه، والمثقف هو الذي يصرخ بوجه المجتمع من أجل التغيير، لأنه يعرف أن الطريق نحو الهدم أولاً ثم البناء لا يأتي إلا من خلال السيطرة على حجم الدمار ومحاولة تقليصه، ذلك الذي يملكه الحاكم الدكتاتور المسمى بالجحيم الداخلي الفاسد... إنه يعلم كل ذلك، ومع هذا كان لا يستسلم ولا يعترف بواقعه الحقيقي مغترًا كالطاووس ومتكبرًا كالقط وكأنه يريد من الجميع أن يدينوا له بالجميل! إذ كان يرى الأشياء كلها تسير

باتجاه واحد، وهذا ربما كان إثمه الوحيد نحو المعرفة الحقيقية العميقة، التي لا تعترف الأخيرة باستقلاليتها من طريق واحد لأنها مرادف للذكاء والحكمة في عالم الإنسان منذ حلوله على الأرض غرًا...

لخليل ملامح يهودية غريبة بعض الشيء، رأس بارز العظام ووجه مشدود الجلد، يتمتع ببرود جليدي لعين يشبه برود القتلة، عيناه السوداويتان المتواضعتان، وأنفه الذي يشبه المنقار، سحنته الزيتونية كسحنة (سيلينوس والد باخوس في المثيولوجيا اليونانية القديمة الذي كان على شكل قزم سمين دميم الوجه وهو رمز لمرح المعربد وحامي السكارى)، وخصلات شعر رأسه تشبه ذيول الفئران، في الحلقة الرابعة ولم يتزوج بعد، دقيق الملاحظة، سريع الخاطر، خجول وخجله المفرط يجعله يشعر بالشلل أحيانًا، عندما تجتاحه النوبة تلك يغتصب تعبيرًا من الورع الكاذب ويكشر عن أسنانه الأمامية الأرنبية الملونة من أثار التبغ، ويردد أشياء هازئة مواربة لا تتعلق وما ينطق به داخله الضامر المحبوس خلف قضبان صدقه... لقد كان إجمالاً كما يقال: سهلاً ينذر بالخطر!

تعلقت حياته بأمل يتيم، غالبًا ما كان يراه حقيقة ماثلة، ولم يقبل النقاش يومًا بأمره، وهو يردد بتكبر أغبر: أنا خليل الصحفي اللامع والكاتب المبدع دون منازع... لِم لا؟ وصوره مدقوقة ومرصوفة في كل الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية

والشهرية، وحديث الساعة الذي لا ينقطع في الأوساط الفنية والثقافية والإعلامية!!

تعددت كتبه التي كتبها ونشرها في أرجاء العالم العربي، شيئًا عن الأدب وآخر عن التاريخ، وثالث عن الدين، ورابع عن الحضارة القديمة، ناهيك عن مغامراته الصحفية ومقالاته التي يسميها اللاذعة القارصة، وبكل أعماله تلك كان مغتبطًا سعيدًا راضيًا ومغرورًا... ولا يكف الحديث عن نفسه وقبول من يدعوه لحضور الأمسيات الثقافية على شرف سمعته ونبوغه الذي لا يقهر...

متعدد القراءات، بل ليس لديه ما يعمله في حياته منذ سنوات غير القراءة والمطالعة في كتب من سبقوه، حتى غصت غرفته بالكتب المرصوفة على بعضها البعض كأدوية الصيدلاني؛ وكان يقول بطريقة مضحكة وبتعبير ساذج يوحي بقلة البراءة على شكل من الأشكال مشاكسًا فظًا كالبق الهائم في الليل:

- همْمْ... حسنًا، بحق كل هراء بائس يقوله غيري، إن القراءة لابد أن تكون الوحيدة التي تؤدي إلى عالم الكتابة! كيف لا وأنا البرهان القاطع على صحة ما أدعي وأقول!

وأمه تنظر إليه بعينين متألمتين شبه راضيتين لانتصارات وأعمال ابنها الوحيد، وهي تراه يكبر ويصغر أمامها دون أن تستطيع مد يدها لمساعدته؛ لعناده، غبائه وذكائه في نفس الوقت!

بعد معاناة صامتة خاضتها الأم في صعوبة تحصيل إيراد تستطيع من خلاله أن تعيش مع ابنها بسلام دون ذل أو امتهان، قررت أن تخفف من أعبائها، وبالأصح من أعباء ابنها الذي كان يكلفها كل ما تحصل عليه من راتب تقاعد زوجها المتوفى منذ خمس سنوات، وما وفرته في تلك الفترة المستقرة أثناء حياة زوجها، خاصة وأن خليل لا يعمل، وهو يظن بأنه ليس كذلك؟! وهذه هي المصيبة التي كانت الأم تعرفها... هو لا يريد ينطق أو يعترف بها! بل بالعكس كان يدعي أنه يعيش نتيجة كفاحه ونضاله من أعماله الكتابية التي طغت على الحياة والساحة الثقافية العربية وهو يقطن في جزيرة كوت لاند السويدية!

لم تمض إلا شهور قليلة من تقطير وتقليص نفقاتها لابنها حتى بدا الأمر له واضحًا جليًا... وها هو في ذلك المساء الحالك الدامس الذي يشبه ظلمة الأعمى - كما قلت - ينهار ويفقد أعصابه نتيجة شعوره بالإحباط والجزع القاتل الذي ينتابه، خاصة وهو لا يعلم أسباب ذلك التغيير المفاجئ الذي حصل بالعالم وما يحيط به، حتى بات فجأة معزولاً لا أحد يسأل عنه أو عن أعماله التي كانت في وقت قريب تمثل الصخب في حياته ومصدر سعادته اللا محدودة...

قلّت الدعوات التي كانت ملهاته وتسليته، وهو يظهر مقدرته الفذة في الإبداع النثري، يصيح ويهتز بدنه لكل كلمة يصول ويجول بها:

- الموهبة ليست البداية ولا النهاية، المتابعة والقراءة والاطلاع على ما تيسر من نتاج العظماء في العالم هو الطريق للشهرة والنبوغ...

ثم يرفع عينيه في ضيق واضح فيخرج منها وميض ثور غاضب ويهتف بشكل مخيف كمن شرب للتو زيت الخروع عن عمد بحكم التباهي، أو صنف من أصناف الغرور المثلوم:

- يا رحمة السماء، صدقوني إيه... وبحق ما نعبد، ما أقوله هو الحقيقة التي تفقأ عين الجن من نسل إبليس وليس شيئًا آخر سواها، بذلك، كأنه يريد تنظيف سمعته بالدسائس!!

لم يعد يأكل بانتظام كما كان، غادره مرحه، وتوارت نظرته الثاقبة التي لم تعد تسعفه، قلَّ خاطره وأصبحت علاقاته مع الناس بمرور الوقت لها طعم السيجارة الأولى في الفم، وسرعة بديهته التي كان يتغنى بها أصبحت شيئًا يشبه الغفلة أو السذاجة، حتى هزل بشكل مروع ومرض كمن يشعر بدنو أجله... مما أثر سلبًا على صحة أمه وهي ترى وحيدها يتقهقر كشبح كشفت لعبته ولم يعد سحره بادعًا، نافذًا ومؤثرًا كما كان... فقررت أن تتحدث معه بصراحة وبطريقة بدت لا تدل على الارتياح:

- عزيزي خليل لماذا أنت هكذا؟ وكأن الحياة قد غادرتك منذ أيام!

هرش رأسه وحدج أمه بأسى وحمق وتعاسة لا توصف:

- كيف لماذا؟ وأنتِ تعلمين جيدًا ما حصل ويحصل لي!!

أجابته باندفاع لم يتوقعه وهي ترمقه بنظرة ملؤها الخوف عليه والحسرة من أجله، بوضوح سرعان ما رآه لعينًا كاويًا كنار جهنم:

- إن أقدم القصائد الدينية والفلسفية الهندية القديمة "البهاجافادجينا" تقول: رغم أن الرجل قد يكون أعظم الخطاة، فإن معرفته لهذه الحقيقة سوف تحمله كالطوف فوق الخطيئة؛ وأنت لا تريد أن تعترف بذلك وهذا هو إثمك إن صح تعبيري!

علت لهجته مسحة من نفاد الصبر وهو يرد:

- ماذا تقصدين بالضبط يا أمي؟

بحدة:

- ما فهمته أنت ويكفي ما حصل... ثم تابعت بصوت خفيض فاض فيه الحنان وسيطرت عليه الرقة: يا بني انتبه على ما تفعله، عد إلى رشدك، فكر بروية واجمع كل ما حصلت عليه وحلله ثم قل كلمتك بدقة فيه بعد اطلاع وتمحيص، واترك التكهن والغرور والتشوف قليلاً...

عدلت من جلستها التي كانت تقابله فيها وهمست مستطردة:

- ألا تنظر إلى نفسك في المرآة؟ قل لي بحق السماء يرحمك الله، من هم أصدقاؤك الآن؟ اذكر لي واحدًا منهم يزورك اليوم ويسأل

عليك؟ متى أخر صحيفة كتبت عنك أو حتى نوهت لكتاباتك؟ لا تكابر أكثر، كن أكثر واقعية وحرص فيما تفعل، ولا تنس ثقافتك واطلاعك الذين يعطيانك القوة والدافع إلى التواصل والعطاء...

قاطعها متجاسرًا بطيش وعدائية لم تتوقعها من وحيدها:

- ماذا تقولين بحق الجحيم؟ وأردف بذات الرنة: أي واقعية وأي حرص وأي ثقافة؟ ألم تشاهدي بنفسك ما يحدث؟ إنها مؤامرة بالتأكيد... هناك من يحيكها ضدي، وبدوافع ربما لا يعلم بها حتى الشيطان الأعرج الذي كنت أتعاطف معه ويرق له قلبي أحيانًا!

محبطة:

- إذن لا تريد أن تتعلم من أخطائك!

قال منطلقًا مندفعًا كشاهد زور:

- بحق الرحمن... أي أخطاء تقصدين؟

برزانة:

- الثقافة والاطلاع لا يكفيان!

رد مترنحًا في مقعده وهو يتلوى كالأفعى:

- ماذا تقولين؟!

- كما سمعت ويكفي ما قدمته من أجلك!

- من أجلي؟ ثم نبر مدمدمًا بخنوع كدجاجة تصيح: لا... عن أي شيء تتحدثين؟!

بصرامة مخلوطة بالعطف والندم وبصوت يشيع من نبرته رنة غيظ:

- سأقول لكي يا بني وليس لي من خيار آخر سوى هذا: أنا صحيح وكما تعلم... على مستوى علمي بسيط، وتعليمي لم يكن جامعيًا، لكنني أفقه الحياة، وتجاربي تجعلني أعي ما أريد، لذلك أعرف أن ليس كل أكاديمي درس اللغة أو الآداب يكون كاتبًا أو صحفيًا أو أديبًا مرموقًا، قد يعمل في تخصصه لكن ليس شرطًا أن يكون مبدعًا أو مميزًا؛ هذا إذا كنت أنت أصلاً من خريجي تلك الدراسات التخصصية! لذلك فالموهبة وحدها لا تكفي والثقافة التي تحملها والاطلاع الواسع الذي زرعته أنت بداخلك بصدق كذلك لا يكفي، بل ربما تجتمع الكثير من الأشياء مع بعض كي يكون المرء مميزًا، خلاقًا ومبدعًا...

ثم سألته مباغته:

- هل تفهم ما أقول؟ وتابعت حديثها وكأنه رد عليها بالموافقة: إيه... ماذا أريد أن أقول؟ نعم، إننا نحاول دائمًا بأدب غير معهود، أعني، غالبًا ما يكون ذلك الأدب الذي نسميه الأخلاقي الذي نتباهى به غير المنظور في مكافحة الجحيم الذي يفور بداخل كل واحد فينا، لكننا نتناسى أحيانًا أن علينا ألا نفعل ذلك، بل العكس تمامًا، إذ علينا أن نسيطر عليه وهو يغلي، نروض شيطانه، نجعله أكثر قابلية لأن نتأقلم ونتعايش معه على قدر من

السلام وحيثما نستطيع، وما مهمة الأدب والصحافة الجادة الملتزمة إلا أن تخلق تلك المعادلة الفاضلة، التي تحول ذلك الصراع وتلك الحرب الداخلية الضروس في الإنسان إلى رحمة على شكل من الأشكال، الحرب القائمة بين الإنسان وضميره، بين داخله وخارجه، بين حياته وعمله، بين عقله وشهوته وبين ما ينطق به وما لا ينطق والفائز في النهاية يكون من الأفذاذ يا ولدي...

ثم بعد وقفة قصيرة نكست رأسها وهي تشهق بعبرات جعلت خليل ينتفض من مكانه وهو يصيح:

- ما بك يا أماه؟

بحماس صادق:

- يجب أن أصارحك بشيء لم أشأ من قبل البوح به.

صاح مندفعًا:

- سر مثلاً؟

بهمس مخنوق:

- ليس كذلك.

بصوت ملؤه الإيحاء والغموض كعينيه مستفسر:

- بحق الله ما هو إذن؟!

باستسلام مطلق نبرت:

- الحقيقة... أقصد يا بني، أنا، أنا من كنت أدفع للصحافة ودور النشر كل التكاليف التي تجعلهم يقبلون أعمالك، وينشرون صورك ويكتبون عنك على أمل أن تكون يومًا صحفيًا وكاتبًا كما تتمنى وتحلم، لكنني وبتلك الطريقة قد خذلتك وجعلتك مخدرًا بأوهام ما كان عليّ أن أقبلها لابني... اعذرني واقبل توبتي، بل لا أستطيع بعد اليوم دفع تلك التكاليف الباهظة لهم وهذا ما جعلهم يتناسون ويغضون النظر عنك!

انزلقت دمعة كبيرة على خده وانحدرت مسرعة نحو فمه وهو مازال جالسًا أمامها يصيخ السمع مخذولاً، خجلاً ومسحورًا، وهو يهمس بقلق رهيب متشنجًا، قال وكأنه يتوسل بالصبر لإنقاذه:

- كم أنتِ عظيمة يا أمي رغم كل شيء... سأحاول منذ اليوم أن أكون كما ينبغي أن أكون، خاصة وأن لي أم بهذه العظمة والروعة.

ثم قفز كفرس في حظيرة مغلقة يقبل يديها كالمجنون بحب لا يضاهى ولا يوصف رغم المرارة التي كان يشعر بها، والألم الذي كان ينهش جسمه كطعنة خنجر، وكأنه ينغمس ببرود وبطء قاتل في قلبه...

قلب السلحفاة

يا الله...

التقى صدفة في مدينتهما الجميلة - باد فيرسهوفن - التي يعمل ويسكن فيها كل من حسام وزوجته حنان، منذ قرابة خمس سنوات؛ مدينتهما الصغيرة مثل قرية سياحية، يشق المدينة جدول رقراق ساحر إلى نصفين، تنتشر فيها عيون الماء المعدنية في كل مكان كتواجد الأشجار، والينابيع تلك يمكن استخدامها مجانًا؛ تقع المدينة في الجنوب الغربي من ألمانيا، محاذية لسلسلة جبال الألب الشهيرة العملاقة، اتخذت المدينة سمعتها وانتشرت لأغراض العلاج الطبيعي ضد أمراض الجلد والعظام، تلك الطرق الطبيعية للعلاج التي اكتشفها الكاهن كنايب في القرن الماضي... والمرأة التي التقياها كانت قادمة من مدينة دريزدن الألمانية المعروفة بكثرة وقدم كنائسها التي صمدت أثناء الحرب الكونية الثانية وعلى مر الزمن والتاريخ... لقد كانت امرأة رائعة حفظها سبحانه مثل قديسة، فاتنة الجمال رغم تقدمها في العمر فظهرت وكأنها أميرة بقلب يخفق بالحب والرحمة كقلب السلحفاة، يبقى ينبض حتى بعد ذبحها لعدة ساعات!!

• • • •

اللعنة! كان لابد من كتابة مقدمة وعرض بسيط للقصة، أجبرت على كتابتها... فللقارئ حق يتوجب تأديته وسداده على أكمل وجه!

عند ذلك الصباح الذي كانت نسائمه عذبة، رقيقة ترقص طربًا (هكذا وجد حسام الصباح) وهو يشعر بلحظات من السعادة يعجز عن وصفها بعد أن غرق فيها وفي كل أجزائها، من قمتها حتى نخاعها، بصخبها وهدوئها، سعادة لا مثيل لها، كسعادة المجنون في أتوج غروره! رغم تأخره وزوجته عن موعد عملهما... ظل يشعر بتلك اللحظات الفريدة من عمر الإنسان وسط كل ما يدور حوله من ألم وعذاب، لحظات يعرف حسابها جيدًا، لو مرت لن تعود، وإن عادت، ستكون أقصر من سابقتها، لأنها لحظات من عمر الزمن الراهن!

كانت سيارة حسام التي يقودها بنفسه تهدر مسرعة، وزوجته بجانبه يشع وجهها فرحًا وطيبة، وهي تنظر لزوجها بشجون عاطفي منقطع النظير وتعيش لحظات سعادته التي تجهل أسبابها معه بكل عنفوان وحرص وطيبة؛ حتى ظهر على مرمى من نظرهما امرأة عجوز واقفة بقلق على رصيف الشارع، ترتكز على عصاة طويلة مصقولة، انعكست عليها أشعة الشمس فظهرت وكأنها من العاج، تشير بيدها وتلوح بعصاها العاجية عاليًا لإجبراهما على التوقف! همست حنان لزوجها بلهجة ود

وبنبرة لا تحتمل الاعتراض في نفس الوقت أن يتوقف ويسألا المرأة عن حاجتها. تردد حسام قليلاً وشرع قائلاً:

- لكننا سنتأخر أكثر!!

- أرجوك توقف.

كرر إمتعاضه بطريقة مقتضبة أخرى:

- الوقت!

- يذهب إلى الجحيم.

- ماذا عن عملنا؟!

- إلى الشيطان، وأردفت بنبرة رصينة لا تقبل الشك: كل ما يهمني الآن أن أعرض مساعدتي على تلك المرأة لعلها في مأزق!

- حسنًا...

توقف أمام العجوز مباشرة وهو ينظر إلى ساعته وكأنه يناجي نفسه بسخرية! فرأى المرأة بوضوح تام؛ شقراء الشعر، بيضاء البشرة، زرقاء العينين، طويلة ومنتصبة بقامتها وكأن الدهر الطويل الذي عاشته لم يمر عليها، وقدر عمرها بالثمانين وربما يزيد قليلاً. عندها لم تتوان حنان ولم تنتظر... أنزلت زجاج نافذتها وسألت المرأة بصوت دافىء يقطر مودة وحنان كاسمها:

- سيدتي... كيف لي أن أساعدكِ؟

بلهجة واثقة:

- أنا سائحة وأريد أن أصل إلى مركز المدينة ولم أحصل على سيارة أجرة... وبعد برهة توقف أخذت فيها نفسًا عميقًا شرعت مستطردة: ماذا أريد أن أقول؟ نعم، تذكرت، هل لكما أن تقلاني معكما إلى مركز المدينة؟!

نظر حسام إلى زوجته بحدة تدل على عدم الرضا، فتلافت نظراته حنان وهي تفتح باب السيارة وترجلت منها وهي تقول للعجوز:

- طريقنا واحد سيدتي.

فنبر زوجها في نهاية المطاف معقبًا:

- هذا صحيح، فمكان عملنا أيضًا يقع في مركز المدينة ونحن متوجهان له...

وغير من نبرة صوته فجعلها أقرب إلى المناجاة والتسبيح:

- بسرور سيدتي... تفضلي... سوف لن نخسر شيئًا.

وهو يخزر زوجته ويصليها بنظرات شرسة دلالة عدم الاقتناع بما كانت تفعله! وحنان منهمكة ومشغولة بالعجوز وهي تشد على صدرها وكتفها حزام الأمان بعد أن عرضت عليها أن تجلس في الأمام...

رفضت المرأة بطيبة نادرة معتذرة عن قبول عرضها بقولها:

- أنتما مازلتما في مقتبل العمر والحياة مقبلة عليكما بانفتاح وروعة، وما عليكما سوى الاندفاع نحوها لالتقاط دقائقها، ثم استطردت بحنية: لا تجعلا هذه الدقائق الثمينة تذهب هكذا سدى دون حب وسعادة وأنتما أهلاً لها؛ أما عني فأفضل الجلوس في الخلف فهذا يعني نهاية المطاف وعلامة من علامات الرحيل...

ثم ساد الصمت، وحسام لم يتوان... انطلق مسرعًا متوجهًا إلى مكان عمله؛ فبادرته العجوز بسؤالها مستوضحة:

- أرجو ألا أكون مخطئة... لقد قلت مذ قليل بأنكما تعملان في مركز المدينة أليس كذلك؟

- هذا صحيح سيدتي!

بجرأة مخلوطة بالعذوبة:

- عذرًا على تطفلي، لكن لي فضول بأن أعرف في أي مجال تعملان؟

باهتمام مبالغ فيه:

- في مجال الصياغة وبيع الساعات اليدوية ثم أردف بتملق ملحوظ: نملك متجرًا صغيرًا هناك، حيث نديره أنا وزوجتي منذ سنوات عديدة.

(قال ذلك وهو يزر زوجته بنظرات جانبية كالسمكة ويغمزها)

ناحت العجوز متألمة:

- آه... لقد أقتنيت يوم أمس ساعة جديدة، ولو كنت أعرف بأنني سألتقي بكما لأشتريتها منكما.

برصانة ورزانة رد عليها حسام:

- لا عليك سيدتي... فكل شيء قضاء وقدر، هكذا أعرف أنا الحياة وأفسرها، والرزق يأتينا بمشيئة علام الغيوب وغفار الذنوب من دون أن نعلم!

- بالضبط يا بني... ما تقوله عين الصواب.

وهي تطلق زفرات مقلقة، سمعتها حنان التي تجلس أمامها مباشرة بأنها صادرة من رئة العجوز وكأنها مصابة بالربو فبادرتها بسؤال:

- هل سيدتي تعاني من الربو؟

- لا داعي للقلق، فمن يعيش ما رأيته في حياتي يصاب بأكثر من مرض، والربو شيء لا يستحق الوقوف عنده كثيرًا، خاصة وأنا عاصرت الحرب العالمية الثانية بكل آلامها، مرارتها وعذاباتها، لذا أشكركما على شعوركما الطيب نحوي وقبل أن تلوذ بالصمت رددت: هذا لطف كبير منكما وجميل لن أنساه بسهولة!

همس الزوجان دون تردد، بثبات وبصوت واحد وكأنهما متفقان:

- لا داعي للشكر...

في هذه الأثناء وصلا إلى مكان عملهما وترجل حسام مسرعًا إلى متجرهما وأبقى زوجته تساعد العجوز، والأخيرة مازالت تغمغم بزفرات لا تنقطع كالشخير...

ما أن فتح باب المتجر، حتى تفاجأ حسام بدخول زوجته بصحبة العجوز... ولم تمض دقائق حتى كانت العجوز قد اتفقت مع حنان على نيتها لشراء عقد صغير من الذهب؛ فذهل حسام من سرعة رد الجميل وهو مازال لم يعرض للزبائن بضاعته في واجهة المتجر (هذا ما راودته قرارة نفسه)، شعر أن السعادة التي كانت تغمره قبل دقائق معدودة لها دوافعها وأسبابها رغم جهله لها، فارتفعت ضحكاته الرنانة وبدأت خطواته تكون سريعة كمن يفر راكضًا... لكنه امتعض مجددًا فجأة وانقلبت سحنته وتغير مزاجه المرح الفرح الذي كان للتو عاليًا، عندما سمع المرأة وهي تقول وتكرر جازمة:

- أين أنا الآن؟

ثم تساءلت عن الوقت وعن سبب وجودها في هذا المتجر، وما شابه من هذه الأمور التي جعلت حسام يشعر بالريبة من قواها العقلية أو حتى قوة ذاكرتها، وما أقلقه أكثر... سؤالها عن سعر العقد أكثر من مرة رغم تلقي الجواب من زوجته بكل وضوح! ثم فجّرت العجوز أعصاب حسام وأزعجته كثيرًا بقولها:

- أنا لا أملك الآن محفظة نقودي! لقد تركتها في الفندق الذي أسكن فيه، وشرعت: لا أعرف بالتحديد الطريق الذي يؤدي إليكما! ولا حتى كيف أرجع إلى هنا مرةً أخرى! فأنا هنا وكما قلت، مجرد سائحة ولم أصل إلا قبل أيام قليلة!

تدخلت حنان بصدق حميم:

- نحن نستطيع أن نلتقيك في نفس المكان الذي رأيناك فيه مذ قليل وذلك عند الساعة الثانية بعد الظهر، وهو الوقت الذي نتوجه فيه بعد استراحة الغداء مجددًا إلى المتجر، ها... ما رأيكِ سيدتي؟

- عظيم، اتفقنا، لكن لي رغبة أتمنى أن تسديها لي!

- بكل سرور (أجابتها حنان).

- خذي خاتمي هذا لتنظيفه، وعندما نلتقي بعد الظهر آخذ الخاتم والعقد معًا!

- بالتأكيد... سأجعله يلمع كالماس تحت الشمس...

نهضت العجوز بقامتها الطويلة الثابتة وغادرتهما؛ وحسام يشعر بعدم الرضا لعدم تأكده من لقائها مرة أخرى كما اتفقا، وما أقلقه بالتحديد، إحساسه بضعف قدرة المرأة العجوز على التفكير والتواصل والتذكر؛ ورنت كلماتها التي كررتها حول السعر ومكان وجودها والوقت... فأعطاه شعورًا غريبًا غير مستقر، لا يؤكد له قدومها مجددًا وهو يردد على زوجته كلمات اللوم لطيبتها المفرطة مع الآخرين حتى ولو كانت على حساب

حياتهما... ولم يعد يشعر بلحظات الصباح السعيدة ولا بنسائمه العذبة الرقيقة؛ وكل ما كان يفكر فيه، الربح الذي سيجنيه لو اقتنت العجوز العقد، خاصة وهو يقلب خاتمها بيده اليمنى ووجده ليس إلا خاتمًا عاديًا من الفضة لا يساوي حقه أكثر من خمسة عشر يورو! وزوجته تنظر له وتهز رأسها لمغالاة زوجها وسوداوية أفكاره وتصوراته وتسرعه في الحكم على الآخرين دون عناية أو تفكير عميق...

حلت الساعة الثانية بعد الظهر وهما في سيارتهما كالعادة، يسترق حسام النظر إلى الطريق على غير عادته بقلق محموم، يتلهف لرؤية المرأة العجوز كما رآها عند الصباح، وما أن استدار نحو اليمين فوجدها تنتظر كما وعدت بنفس الهيبة والملابس... فلم يصدق نظره، لكن قلبه أصبح يخفق بالسعادة مجددًا طائرًا من الفرح... ركبت العجوز السيارة بمساعدة حنان وهي تهمهم معتذرة عن الإزعاج الذي سببته لهما، وبكلمات جاءت أقرب إلى الدعاء...

لم تمضِ إلا ثوانٍ قليلة حتى نقدت العجوز حنان خمسمائة يورو ثمن العقد وتنظيف الخاتم وطلبت من حسام برجاء خالص أن يسمح لزوجته أن ترجعها إلى فندقها بسيارتهما... وافق حسام بكل ممنونية وهو ينظر إلى النقود الورقية ويعدها بحرص ثم يدسها في خانتها التي يعرفها جيدًا بعد أن رصها.

في الطريق سألت حنان العجوز مستفسرة عن سبب خروجها عند الصباح، فردت المرأة بعنفوان وصدق:

- الحقيقة لم أكن أملك هدفًا محددًا!

بذهول:

- هذا يعني، لم يكن لديكِ عمل أردت القيام به في مركز المدينة؟!

- لا تفهمينني خطأ، أنا لم أقصد ذلك.

ثم سكتت متأملة، سارحة وكأنها في عالم آخر! فأعادت حنان سؤالها باستغراب:

- كيف يعني ليس لديك هدف وفي نفس الوقت تقولين لا تفهمينني خطأ؟! أرجو أن توضحي لي ذلك سيدتي إن رغبتِ...

برزانة:

- ما أردته فقط، كيف أشرح لكِ ذلك؟ أعني لم يكن لدي شيئًا محددًا!

- معذرةً لم أفهم!

- آه... وهي تطلق شخيرها، أقصد، زفيرها الصادر عن رئتها المتعبة، ما أريد أن أقوله هو إني كنت قد قررت عند الصباح أن أزور الكنيسة فقط...

فقاطعتها حنان شاهقة:

- تزورين الكنيسة فقط؟!

بصوت هزيل أقرب إلى الهمس:

- نعم يا فتاتي الغالية، أردت زيارة الكنيسة، وأشعل شمعة أتفاءل بها، وهذه عادة أمارسها منذ زمن طويل... وقد قمت بذلك بعد أن غادرتكما في الصباح ورجعت إلى الفندق، لكنني وفي متجركما عثرت على هذا العقد الجميل الذي كنت أمتلك مثله يومًا ما، وأهديته إلى امرأة كانت تقيم معي في نفس الغرفة في المستشفى قبل عام تقريبًا، وعندما وجدته عندكما قررت اقتناءه في الحال.

ثم عبرت متابعة بسجيبة عفوية وبحساسية مفرطة كي لا تؤذِ فيها مشاعر حنان قائلة:

- لا تعتبري شرائي للعقد على أنه رد للجميل، فأنا لا افكر بهذه الطريقة المباشرة، واستطردت: يكفي أن العقد سيجعلني أتذكركما دائمًا وما فعلتماه معي له أكثر من معنى واعتبار، ناهيك عن تأخركما عن موعد عملكما وهو مكان رزقكما وما فعلته أنا لا يساوي القيمة الإنسانية التي تلقيتها منكما...

ثم نوهت بشغف مبتعدة عن الموضوع:

- لكِ يا فتاتي الحسناء طيبة ساحرة تسع العالم كله، وقلب رحيم كقلب السلحفاة يبقى ينبض بالحياة حتى بعد ذبحها لساعات طوال!

بذهول واستغراب ردت حنان:

- عجبًا!

- ولمَ العجب؟

- لأن زوجي قد قال عنكِ وردد الجملة ذاتها، بإنك تملكين قلبًا رحيمًا كقلب السلحفاة!

فضحكت حنان بعفوية رائعة كالأطفال... فشاركتها العجوز الضحك، وتحولت فجأة رناتها وانقلبت إلى قهقات عالية وكأنهما يشاهدان فيلمًا سينمائيًا كوميديًا... بعد أن نست العجوز زفرات رئتها وصعوبة تنفسها وهامت في رحاب من المتعة غير المنتظرة أو المقصودة تمامًا كحنان، خاصة بعد أن اعترفتا الواحدة للأخرى بأنهما أخوات في البرج! إذ يعودان كلاهما إلى نفس الطبيعة التي جبلهما الله عليهما... إلى برج القوس الحازم، الحاسم، الصادق، الطيب والرحيم... واستمرت أصوات القهقات تُسمع عن بعد كصهيل الخيول النافرة التي ترفض أن تروض!!

حظ السعد

تنويه:

أرجو ألا يكون قد فات الآوان لأعلن عن شر تنويهي بحرص وإتقان، برصانة ورزانة... التنويه الذي سيبدو كالموال الحزين قبل الأغنية الراقصة! إذ يوحى لي وأنا اكتب هذه القصة المسرفة في البساطة والصدق، أن بطل القصة والمتمثل بشخصية سامي معجزة أخلاقية وسط صحبه وربعه، ومن يراه لا يمكن بسهولة أن ينساه! وصديقه سلام الوفي معتدل الآراء حميد الأخلاق، لا يقل كرمًا في تواضعه وقلة حيلته وجهله في أسرار الحياة وطبيعتها الصعبة المعقدة وناسها غريبي الأطوار كثيري ومتعددي الأدوار كصديقه!!

• • • •

ارتعشت الشمس وهي تزحف على الأرض منسحبة بعد يوم طويل من عملها حيث مقرها الأخير، لتبدأ من جديد في جهة أخرى وعجلة الزمن تدور دون أن تعبأ بمن على الأرض وما

يصادفهم أو يصيبهم... في هذه الأثناء اقتنع الصديقان أن يعيشا ويحيا ساعتهما بعد أن كانا في الحياة أمواتًا...

همس سلام بأذن سامي - الصديقان اللذان لا يفترقا منذ أيام دراستهما المتوسطة – واستمرت علاقتهما بنفس القوة والحميمية وهما الآن في سنتهما الدراسية الأخيرة في الإعدادية. قلت هامسًا لسلام كقيصر روماني قديم لصديقه الوفي بمرح عظيم:

- ماذا تقول يا صاحبي لو ذهبنا اليوم مساء إلى السينما؟

صاح صارخًا كالمقروص بغفلة:

- ماذا تقول؟ السينما!

ثم أردف متهالكًا غير مصدق ما سمعه:

- هل أنت في كامل وعيك؟ كيف تطلب مني أن أوافقك على طيشك وأرافقك وأذهب معك إلى هناك؟!

- إلى هناك؟ أين تقصد؟ أنا لم أقل أكثر من كلمة واحدة واضحة، أريدك أن تشاركني متعة رؤية فيلم في إحدى دور عرض الأفلام في بغداد.

ثم استخف به الطرب فجأة فاستطرد ذائعًا وهو يهز رأسه كهندي متمرس في هذه الحركة:

- كما سمعت يا صديقي هناك في أحد شوارع بغداد الذي غاب عني اسمه وأظنه يدعى شارع السعدون الذي يقال عنه قبلة

الأنظار ومعقل الأبصار، والذي تتجمع وترتصف فيه تلك الدور كخلايا النحل في مكان واحد، وتتلقف أيادي عمالها الزبائن من الشارع ناهيك عن الصور والإعلانات الضوئية التي تروض الإرادة الشرسة وتحفز الغريزة النائمة وتجعلها مثارة ومتيقظة... ناهيك عن الضجيج الصاخب الذي ستسمعه، ضجيج يأتيك من كل مكان لترى نفسك وكأنك في عرس للهنود الحمر في غابة، كل شيء هناك يصرخ، يضحك، يهتز، يرقص ويدمدم... إنها الحياة يا صاحبي، وعليك ألا تنسى بأننا بعدها نستطيع أن نتنزه قليلاً على الكورنيش حيث خضرة الشجر وهدير النهر؛ ها... قل لي يرحم الله أباك: هل هذا عيب أم حرام؟!

رد محتدًا مرتعد الفرائص بعد أن استبد به الهلع وعذبه الجزع:

- لن أجيبك لأنك تعرف السبب، لذلك تعجبت من طلبك الغريب هذا!

- أعرني سمعك وأنصت لما سأقوله: يا عزيزي وحبيب قلبي سامي، أنا اعرف ذلك جيدًا، لكن دعنا نغامر مرة في حياتنا، سوف لن نخسر شيئًا، بل بالعكس سنجمع خبرة، وربما نستطيع أن نعيد الزيارة في وقت قريب آخر! ونستمتع كما الآخرين.

توقف برهة ليرى وقع كلماته ومدى تأثيرها على صديقه واستطرد باندفاع محموم:

- عليك ألا تنسى بأننا في عمر يسمح لنا فعل ذلك!!

استعاد سامي فجأة قوته وكأنها بفعل معجزة وطفق مكتئبًا وهو يرفع سبابته في وجه صديقه:

- وماذا لو تهنا؟ أو تأخر الوقت ولم نعد نعرف رأسنا من أقدامنا؟ ها... ماذا سنفعل ساعتها؟! نبكي أم نلطم الخدود وننوح؟!

- هون عليك يا صاحبي، لا تيأس من رحمة الله هكذا سريعًا، فنحن مازلنا لم نجرب، ومن ثم لماذا تنظر إلى الأمور بمنظار أسود لعين، فكر بالمتعة وما سنجنيه من وقت حر نفعل فيه ما نرتاح له وما نحبه...

فقاطعه سامي عابسًا متوسلاً:

- دعني وشأني، لن أذهب ففي ذلك مخاطرة قد لا تحمد عقباها (وهو يزم شفتيه كطفل غاضب).

- بل سنذهب واعتمد على أخيك سلام وأنت تعرفني جيدًا، قول وفعل...

شكره بنظرة وهزة من يده، وسحبه بعنف لطيف وهو يحاول أن يسوي معه الموضوع وديًا ويسمعه بعض النكات التي سمعها أخيرًا، بغية تلطيف الأجواء التي توترت بسبب عناد سامي ورفضه لقبول دعوة صديقه... وما انقطع سلام من أن يردد على مسامع صديقه مازحًا:

- لكَ يا صديقي قلبًا أفضل من عقلك بكثير... وهو يهز كتفيه ورأسه يتأرجح ويقهقه متعاطفًا مع ما قاله!!

إذا لم أزعج القارئ الذي غالبًا ما أشعر بأنه ليس راضيًا على ما اكتب من وصف أصف فيه شخصيات أبطال قصصي التي اكتبها بحبر يشبه إلى حدٍ ما حليب الجن الهلامي! وأسأل القارئ دون خبث: ترى متى رضي الإنسان عن حياته وما يحيط به؟! فهو لو أودع الجنة وسكنها... سيفر منها متذمرًا ولو بعد حين!! إذًا دعوني أذكر وفقكم الله... بأن سامي كان غض الإهاب نضر الشباب، بجبهة صافية مثل زجاجة العطر وابتسامته حلوة نقية كزهرة متفتحة، شفيق رقيق ولصحبه خير الرفيق، وتحلى منذ نعومة أظافره بصفات لا نجدها عند الآخرين بسهولة؛ فقد ولد طفلاً موهوبًا منذورًا للفن وأنضجت وحدته موهبته، خجول منطوي على نفسه بشكل يدعو للعطف أو التساؤل، سريع التأثر كعود الثقاب وورق السجائر، سهل الاشتعال؛ والأهم من كل ما تقدم لم يكن أنانيًا ويعشق نفسه، بل كان متواضعًا بلعنة رهيبة وفي أحيان كثيرة يأتي على نفسه وحقه وكأنه لا يمكلك من شأنه شيئًا!!

مشدوه الفكر وموزع باتجاهات غير محددة، لا تقف عند نقطة واحدة، يكترث للأشياء المحيطة به كثيرًا حتى ولو كانت بسيطة لا تستوجب الاكتراث والتأثر، كرَّمته مرة إدارة المدرسة في المرحلة الإبتدائية كونه الطفل الوحيد في المدرسة الذي لا يسمع له صوت وخجله يضرب به المثل فاق كل التصورات، وسلام لا يختلف كثيرًا عن صديقه، وها هما معًا في طريقهما إلى السينما

في مساء خفت فيه الحرارة حد النصف عما كان عليه النهار الذي ولّى...

ما أن ترجلا من الحافلة التي احتوتهما وأقلتهما حتى نسيا همومهما وما يربطهما بالماضي، عيونهما شاخصة نحو الأشياء التي يرونها لأول مرة في حياتهما، وأقدامهما تكاد لا تلامس الأرض طربًا وسعادة... حتى لاحظ سلام فجأة أحدهم ينظر إليه بنظرة ماسحة، صاعقة، شرسة ذات مغزى غريب لم يفهم لها معنى محدد سوى شهوتها الفائرة!!

ارتبك كمن يدافع عن نفسه بالفطرة، وحاول أن يلتصق بصديقه ويسرع في خطاه وهو يسحب يد سامي وراءه، دون أن يفصح عما خالجته نفسه من خوف ورهبة من نظرات ذلك الرجل الذي اعتبره شريرًا دون سابق معرفة!

كان الرجل الغريب نزقًا فاتن القبح، طويلاً كصمته، بعينين متعبتين انهكتهما وأضعفتهما الملذات، غائر الخدين، لا يبدو عليه سيماء الرزانة مثل نحس طاعن في السن من جنس العفاريت الخرافية! رفيع العود، منحني الظهر، أشيب الرأس، يرتدي جاكيتًا رماديًا داكنًا، دعكته الأحجار ولوحته الأوساخ وقلبت لونه فبان وكأنه أسود، وخطواته لم تكن ثابتة ونظراته كخطواته، زائغة لا تستقر على حال، يمسك في يده اليمنى زجاجة لم يتضح

ما بداخلها من سائل لم يبقَ منه سوى القليل يتمرغ داخل الزجاجة بصخب وعنف!!

تضايق سامي من سرعة صديقه غير المبررة بالنسبة إليه، فسأله بعفوية:

- ما وراءك بعد يا سلام؟ ولماذا تهزني وتسحبني بهذه الطريقة؟! أرجوك دعنا نرى كل شيء بهدوء وتمعن.

ثم أشار له بيده:

- انظر إلى هناك... هذه لافتة تُعلن عن فيلم عربي، وأخرى عن هندي...

وحاول أن يستمر لكن سلام قاطعه بحدة بارقًا، راعدًا وآمرًا:

- اخفض من صوتك!

- اخفض صوتي! لماذا؟

- لا تسأل كثيرًا، هيا لندخل هذا الشارع الفرعي بسرعة...

- إيه... ما وراءك يا سلام، هل أنت خائف من شيء ما؟! أرجوك قل لي...

رد عليه والقلق يأكله وهو يتلفت وراءه مثل قط خائف:

- هل ترى أحدهم يتبعنا؟!

تجمدت الدماء في شرايينه، فتح عينيه بدهشة وهو يحاول النظر إلى الوارء... فرأى الرجل الشرير صاحب الزجاجة يتبعهم بشغف منقطع النظير... فصاح بسلام منفعلاً:

- ماذا علينا أن نفعل؟ هناك من يتبعنا ويبدو رجلاً شاذًا أو سكرانا، حقيرًا وفقيرًا، عليلاً وذليلاً... إنه خليط لا أستطيع التكهن في شخصه، فهو يبدو كأهل الكأس والطاس والقرطاس مثله مثل الشعراء الكفرة!!

ثم باغت سلام بقوله بعد أن جال بطرفه:

- تصرف يا بطل؟!

- ولماذا تسألني؟ وعدل من سؤاله وطفق: أقصد، لماذا تطلب مني التصرف وحدي؟!

جأر بامتعاض وحرقة:

- وأسأل منْ يا ترى؟ ألم تكن أنت صاحب الفكرة الجهنمية؟ ألم تقل لي إنك قول وفعل؟ هل نسيت؟!

ثم صاح مرتجف الأوصال متهكمًا عابثًا مواربًا:

- هيا... أرني مهارتك وشطارتك.

يعد نفسه بحذاقته ولباقته من العلماء وأهل الذكاء، ورأيه صائب وفكره ثاقب وكما يقال، جليل الخطر عظيم الأثر!! ثم تابع منغصًا الأجواء التي أصبحت فجأة لا تحتمل:

- يبدو لي أننا وقعنا في براثن شرير لا يريد أن يتركنا بسلام قبل أن يمتص دمنا!!

وكرَّر الجملة الأخيرة بخبث شيطاني لم يعرف كيف أو من أين أتاه:

- سيمص دمنا معًا، ونادى كمؤذن: هل سمعت: أنا وأنت!!

قال متقهقرًا:

- عزيزي سامي لا تؤنبي ولا تلومني... إذ لم يكن في ظني أن تسير الأمور بهذا السوء، أو أن يصادفنا ويلاحقنا هذا الشاذ الذي يحمل جرته معه وفي قعرها يترجرج ماء جهنم!! كما أن خبرتي لا تزيد على خبرتك قيد قيراط وأنت تعرف ذلك جيدًا، فكن منصفًا ولا تحملني أكثر مما أحمله الآن!!

بعدائية مفاجئة:

- وماذا تحمل؟ هه... إي... لا... قل ولا تتردد، فنحن قد انتهينا وسوف لن نفلت من يد هذا الشيطان الرجيم الذي يمص شفتيه ويتلمظ فيها كما سيفعل بدمائنا!!

- الحقيقة المخجلة هي أنني ومنذ أن رأيت هذا اللعين ونظراته التي لا أفهم لها مغزى أو معنى، وأنا اشعر بأن سروالي أصبح باردًا وثقيلاً ولا أعرف لماذا؟!

- سروالك!!

- نعم سروالي...

ثم وعى على نفسه وقال بشيء من الوجد:

- دعنا من ذلك الآن وفكر معي في هذه اللعنة التي تطاردنا.

وهو ينظر جانبيًا وراءه وهما يسيران على غير هدى من شارع إلى آخر، حتى ابتعدا كثيرًا عن الشوارع والساحات الرئيسية والعامة، وبدأ الظلام يستحل الأمكنة دون وارع أو تردد وهما يشعران بالتعب والجوع، وحامل ماء جهنم مازال يتبعهما كظلهما... ثم حلَّ السكون الموحش وسيطر على المكان كسكون صحن كنيسة أثناء الليل، بعد أن خلت الطرقات من المارة وبدت الأمكنة مقفرة وكأنها في كوكب آخر غير الأرض...

قررا أن يستقلا أول سيارة أجرة تمر بطريقهما كي يعودا إلى منزلهما، دون أن يأخذا حظهما من مشاهدة فيلم في إحدى دور عرض الأفلام في بغداد، أو أن يستطيعا تحقيق حلمهما رغم سذاجته وبساطته، وحقهما في تنفيذ ما خططا له دون شعور بالذنب أو الألم أو المهانة... وسامي ما انقطع يردد في سره ببيت من شعر المعري الذي كان الأخير يخاطب الله فيه بقوله:

ولقد زعمت لنا معادًا ثانيًا　　　ما كان أغنانا عن الحالتين

وكلاهما كانا يشعران بإحباط رهيب، ساحق، مدمر ومبهم كشعور من يفارق أحدهم... فراقًا لا لقاء بعده!



قراءة نقدية

استعمال مكثف وموفق من قبل الأديب المبدع المتجدد "هيثم نافل والي" في أسلوب التشويق، فهو يمزج الخيال بالواقع، ويسخر تكتيكيًا من خلال تضليل القارئ وإظهار الحقيقة الواقعية بسرد متجلٍ وكأنها خيالية، وهذه تقنية بارزة ومتميزة في أغلب أعماله القصصية؛ كما أنه حرص على عنصر المباغتة والتهويل، والانتقال المفاجئ، نراه حاضرًا في مكان وزاوية.

القصص في مضامينها تعالج شتى القضايا الاجتماعية والنفسية، العراقية خاصة والشرقية عامة، وقد تميزت قصصه بالسلاسة اللغوية والأسلوب الرشيق وخلط الجد بالهزل، وهذه تقنية رائعة تفرد بها الأديب "هيثم نافل والي"، وذلك بمزج المتناقضين الحياتين واستعماله الأسلوب المزدوج الآنف الذكر؛ واستخدامه للتشبيهات البلاغية التي سخرها وبرع في إظهارها، خاصة وهو يضفي عليها طابع المرح والدعابة في أحرج المواقف وأصعبها، وأحلك الظروف وأخطرها.

فريـاد إبراهيم

روائي عراقي - هولندا

المؤلف في سطور

- كاتب وقاص عراقي، من مواليد بغداد ١٩٦٥م.
- مهندس زراعي.
- هاجر مع زوجته إلى ألمانيا عام ١٩٩٠م.
- أسس مجلة ناطقة باللغة العربية بعنوان (ميمرا الكلمة) في ميونيخ عام ١٩٩٩م، وترَّأس تحريرها.
- نشر مجموعة كبيرة من القصص القصيرة والحكايات والمقالات في مواقع ومجلات عربية عديدة منها: مجلة آفاق مندائية، مجلة العهد، مجلة أقلام الثقافية، مجلة أصوات الشمال، الناس، أدب، شبكة حنين، وطيور دجلة، وغيرها الكثير.
- له محاولات عديدة في الرسم.
- أقام أثناء دراسته في الجامعة ثلاثة معارض رسم تشكيلي.
- أحد المطالبين بتأسيس رابطة للأدباء والفنانيين المندائيين ثم عضواً في لجنتها التحضيرية بعد إنبثاقها عام ٢٠١٤
- البريد الإلكتروني: haitham65@hotmail.de

• الإصدرات :

- نتاج السنين : مجموعة قصصية. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠٠٥م
- الشك وأشياء أخرى : مسرحية. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠٠٧م
- الدين والنبي في التاريخ : دراسة. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠١٠م
- الموتى لا يتكلمون : مجموعة قصصية
شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م
- الهروب إلى الجحيم : مجموعة قصصية
شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م
- عجائب يا زمن : مجموعة قصصية
شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م

• إصدرات قيد النشر :
- أنهر بنت الرافدين: رواية
نهاية إنسان : مجموعة قصصية
- كتاب بعنوان "خواطر ومقالات"

الفهرس



(+2) 02 27270004 / **(+2) 01288890065**

www.shams-group.net